الاستغاثة بالله

أشرف مطلوب

وصرفها لغيره -تعالى- أعظم الذنوب

- تأصيلٌ وتدليل -

- وإيراد أشهر الشبهات والردود والجوابات -

بقلم

أبي عبد الرحمن محمد بن يوسف خشان

الأثرية

للطباعة والنشر والتوزيع

الاستغاثة بالله أشرف مطلوب

وصرفها لغيره - تعالى -

أعظم الذنوب

-الطبعة الأولىٰ-
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الاستغاثة بالله

أشرف مطلوب وصرفها لغيره -تعالى-

أعظم الذنوب

- تأصيلٌ وتدليلٌ -

- وإيراد أشهر الشبهات والردود والجوابات -

بقلم

أبي عبد الرحمن محمد بن يوسف خشان



مقدمة المؤلف

إن الحمد لله نحمده، و نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأ شهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا . يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

فقد استقر في قلوب المُوَحِّدين، حتىٰ صار حقيقةً راسخةً رسوخ الجبال الرواسي أن تحقيق التوحيد بكماله وتمامه هو أشرف أعمال العبد وأعلىٰ واجباته، فهو أصل كل خير في الدين والدنيا، كما أن الشرك هو أصل كل شر في الدين والدنيا.

وفي هذا المعنىٰ يقول شيخ الاسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : فالتوحيد أصل كل

خير و جِماعُهُ، و الشرك أصل كل شر و جماعه، و الموجبتان : من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار.

ولهذا لما جمع -سبحانه و تعالىٰ- بين ما أمر به و بين ما حرمه في قوله -تعالىٰ-: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[الأعراف:٢٩].

ثم قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣][١] اهـ.

ويقول - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

ومعلوم أن الشرك أعظم الذنوب، كما أن التوحيد أعظم الحسنات، كما في حديث ابن مسعود في «الصحيحين» قال: قلت: يا رسول الله! أيّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**»[٢] إلىٰ آخره.

وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٨]، فأخبر أنه لا يغفر الشرك، وما دونه موقوف علىٰ المشيئة.

---

(١) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص ١٣٥-١٣٦).

(٢) «البخاري» - كتاب التفسير- باب قوله -تعالىٰ-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ -رقم ٤٤٧٧- (٨/ ٢٠٥فتح)، و«مسلم» - كتاب الإيمان - باب (كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده)، برقم (٢٥٣)(٢/ ٢٦٧- نووي).

وأعظم ما دعا الله الخلق إليه في كتابه، ودعت الرسل هو: التوحيد، وأعظم ما نهىٰ عنه الشرك، وهو أصل دعوة الرسل، وأساسها، ورأسها، وأكمل ما فيها، وبه بعث الله جميع الرسل، كما قد صرح به القرآن في أكثره فهو مملوء به(١).اهـ.

ويقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- :

وهذا باب واسع؛ فلا يُعرف في دين الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم من الأولين والآخِرين، ولا كتب رب العالمين، أمرًا أعظم من التوحيد، وهو أول الكلمات العشر التي في التوراة، ونظيرها الوصايا العشر التي في آخر الأنعام(٢).

وأهل التوحيد هم المستحقون للشفاعة يوم القيامة كما ثبت في «الصحيح» أن أبا هريرة -رضي الله عنه- قال: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة فقال ﷺ: «**يا أبا هريرة! لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك علىٰ الحديث، أسعد الناس بشفاعتي من قال: (لا إله إلا الله) خالصًا مِن قِبَلِ نفسه**»(٣). اهـ.

ولذلك كان من أوجب الواجبات علىٰ أهل التوحيد ودعاته الصادقين أن يسلكوا سبيل السلف الصالح في تقرير التوحيد، والذَّبِّ عنه بالعلم الراسخ، والحق الواضح، بيانًا لحقائقه، ونشرًا لفضائله، ثم دفعًا لمعارضه ومناهضه، وتحقيقًا لسنة

---

(١) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص ١٤٥).

(٢) وهي الآيات من قوله -تعالىٰ-: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.... إلىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

(٣) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص ١٤٦-١٤٧).

التدافع بين معسكر الحق ومعسكر الباطل .

قال اللهُ -جل وعلا-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة:٢٥١].

ومما يجعل في القلب جرحًا لا يندمل -إلا أن يشاء الله- تلك الدعوات البدعية الشركية، المنتشرة في أصقاع الأرض شرقًا وغربًا، وما تبثه من شركيات فيها محادة لله في أعظم حقوقه، حتىٰ صارت الشُّبَه تتخطف العامة من الناس، بل بعضَ الخاصة، لذا كان لزامًا علىٰ أهل السنة ودعاة التوحيد أن يتنادوا، وأن يشدوا العزم في بيان التوحيد، ونشر فضائله ومحاسنه وأن ينقُّوه مما علق به من الباطل، فما انتشرت البدع، وما ظهر الشرك بصوره الكثيرة والمتنوعة، حتىٰ صار أهله يجهرون به في كل نادٍ وواد، إلا حين قصر أهل العلم ودعاته الصادقين عن بيان الحق الذي يعتقدونه ويدينون لله به، فكلما ضعف نور النبوَّة؛ كلما اشتدت ظلمة الباطل والبدعة، والعكس بالعكس.

واعلم - وفقني الله وإياك- أن الكلام في هذه الرسالة مختصٌّ بفرع من فروع توحيد الألوهية أو الإلهية[١] وهو الكلام علىٰ مسألة الاستغاثة والدعاء، وما يتصل بهما، وقد اقتصرت فيها علىٰ رؤوس المسائل، وأصولها الكبرىٰ، فمن تحررت عنده الكليات؛ سهل عليه فَهْم ما دونها من الجزئيات، وإلحاق الشبيه بالشبيه، والنظير بالنظير من المسائل.

لذلك كانت هذه الرسالة تحريرًا لأصول المسائل، وبيانًا للدلائل، وردًّا

---

(١) وسيأتيك الكلام عن أنواع التوحيد ومعانيه.

لشبهات الباطل، ونشرًا للصوابِ الحقِّ في هذا الباب، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

ولا يفوتُني أن أشكر فضيلة شيخنا علي الحلبي- أعلىٰ الله قدره في الدارين- علىٰ تفضُّله بالنظر في هذه الرسالة، وإتحافي بملاحظاته وتعليقاته، والتي أثبتُّها في مواضعها مِن الحواشي، وصدَّرتها بـ(قال شيخنا).

فاللهَ أسأل أن يُجزل له المثوبة، ولجميع مشايخنا وإخواننا.

والحمد لله رب العالمين.

وكتب

أبو عبد الرحمن محمد بن يوسف خشان

عمان - الأردن

حقيقة التوحيد - أنواعه وأقسامه، جوهره ولُبّه -

التوحيد: هو إفراد الله -تعالىٰ- بما اختص به نفسه، وهو أنواعٌ ثلاثة:

أولها: إفراده بالربوبية؛ أي: إفراده -سبحانه- بأفعاله؛ كخلقه، وملكه، ورزقه، وتصرُّفه، وتدبيره، وهذا التوحيد أقرّت به سائر الأمم إلا شرذمة من البشر.

يقول العلامة المقريزي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه -سبحانه- وحده خالقهم وخالق السماوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قد حكىٰ الله -تعالىٰ- عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] فلما سوّوا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين كما قال الله -تعالىٰ-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]؛ أي: يُسوُّون غيره به.

وقوله -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق: مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين(١). اهـ.

ثانيها: إفراده بالألوهية؛ أي: إفراده -سبحانه- بسائر أنواع العبادة من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وصلة رحم، ومحبة، ورغب، ورهب، وتوكل، وخوف،

(١) «تجريد التوحيد المفيد» (ص٤٠-٤١).

ورجاء، ودعاء، ونحوها، فالعبادة؛ هي: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة(١). ويمكن أن يقال: هي خضوع اختياري يُطلب به نفع غيبي(٢).

وهذا التوحيد هو الذي بعث الله به الرسل أجمعين- عليهم الصلاة والسلام- من أولهم إلىٰ آخرهم، من أجل تحقيقه وتثبيته، وفيه المعركة بين معسكر التوحيد والإيمان، ومعسكر الشرك والكفران، وبسببه انقسم الناس فريقين فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير(٣).

---

(١) انظر: «رسالة العبودية» لشيخ الاسلام (ص٦) -مع شرحها للراجحي-، و«الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٢٨٩-٢٩١).

(٢) انظر: «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٣/ ٧٣٣) للعلامة المعلمي اليماني – ضمن مجموع آثاره -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

(٣) يقول أحمد زيني دحلان في «الدرر السنية» (ص٣٧): «وأمّا جعلهم التوحيد نوعين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية؛ فباطل أيضًا، فإنّ توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية».اهـ.

قلت: بل قوله الباطل، شرعًا ولغةً، أمّا شرعًا فإنّ نصوص الكتاب العزيز متواردة متكاثرة -وستأتي- في الإخبار عن إقرار المشركين بالله ربًّا وخالقًا ومدبرًا، وأما لغةً؛ فإنّ ما ذكروه مخالف لدلالة اللغة، فـ(الرب) و(الإله) معنيان متغايران، وهذا متفق عليه عند أهل الشأن وأئمة اللغة.

ودحلان وأمثاله من المعاصرين من أعداء التوحيد، حين لم يفرقوا بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فيجعلونهما شيئًا واحدًا، وهو الإقرار بوحدانية الله -تعالىٰ- في الخلق والتدبير، هم بهذا لا يرون في صرف الدعاء، والاستغاثة، والذبح، والنذر، ونحوها من العبادات لغير الله مخالفة للتوحيد، ما دام الاعتقاد قائمًا علىٰ تفرُّد الله بالربوبية، ولذلك انفتحت عليهم أبواب من الشرك المطابق لما كان عليه أهل الجاهلية الأُولىٰ وهو يظنونه =

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : «والقرآن عامته هو في تقرير هذا الأصل العظيم، الذي هو أصل الأصول»[(١)].اهـ.

وثالثها: إفراده-سبحانه- بأسمائه وصفاته؛ أي: إفراده بما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحميدة والصفات المجيدة، علىٰ ما يليق بجلال الله وكماله.

ولما كان الكلام في هذه الرسالة متعلقًا بمسائل الاستغاثة وما يتصل بها؛ فأقول مستعينًا بالله -جل وعلا- :

التوحيد في حقيقته وجوهره هو تَعلُّقٌ وتألُّهٌ للرب، وانقطاعٌ إليه بالكلية، بحيث لا يلتفت القلب إلىٰ غيره، بما يقتضي قطع العلائق والوسائط بين الرب وعبده، بإفراده -سبحانه- بسائر أنواع العبادة.

يقول العلامة أحمد بن علي المقريزي الشافعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (٨٤٥هـ) :

«فإن التوحيد حقيقته: أن ترىٰ الأمور كلها من الله -تعالىٰ- رؤية تقطع الالتفات إلىٰ الأسباب والوسائط، فلا ترىٰ الخير والشر إلاّ منه تعالىٰ، وهذا المقام يثمر التّوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله - تعالىٰ -،

=

تعظيمًا لشعائر الله، وهو شرك بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٢٠١-٢٢٩)، ونَقْض خلطهم هذا بَيْن نَوْعَي التوحيد تراه في (١/ ١٧٣ - وما بعدها) من المرجع السابق.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٢٨).

والتسليم لحكمه.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية: منه -تعالىٰ- لعباده، والتألّه: من عباده له -سبحانه-، كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه -عز وجل-.

واعلم أن أنفس الأعمال وأجلّها قدرًا: توحيد الله - تعالىٰ - غير أن التّوحيد له قشرتان[١]:

الأولىٰ: أن تقول بلسانك: (لا إله إلاّ الله)، ويسمّىٰ هذا القول توحيدًا، وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارىٰ، وهذا التّوحيد يصدر أيضًا من المنافق الذي يخالف سرّه جهره.

والقشرة الثانية: أن لا يكون في القلب مخالفة، ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب علىٰ اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا هو توحيد عامة النّاس.

ولُبَاب التّوحيد: أن يرىٰ الأمور كلها لله -تعالىٰ-، ثم يقطع الالتفات إلىٰ الوسائط، وأن يعبده -سبحانه- عبادة يفرده بها، ولا يعبد غيره[٢].



(١) أي : أصلان أو حقيقتان.

(٢) «تجريد التوحيد المفيد» (ص٣٨-٣٩) للمقريزي.

معنى (الإله) - تفسيرًا وتبصيرًا -

وهذه مسألة جليلة القدر عظيمة النفع لمن تأمل، وذلك لما يترتب علىٰ الغلط فيها من كفر صريح وشرك قبيح، حيث إن تحقيق ما هو شرك وما ليس بشرك متوقف علىٰ تحقيق معنىٰ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

يقول ذهبيُّ عصرِه العلامة عبد الرحمن بن يحيىٰ المعلمي -رَحِمَهُ اللهُ-:

«فإني تدبَّرت الخلاف المستطير بين الأمة في القرون المتأخرة في شأن الاستعانة بالصالحين والموتىٰ، وتعظيم قبورهم ومشاهدهم، وتعظيم بعض المشايخ الأحياء، وزعم بعض الأمة في كثير من ذلك أنه شرك، وبعضها أنه بدعة، وبعضها أنه من الحق، ورأيت كثيرًا من الناس قد وقعوا في تعظيم الكواكب والروحانيِّين والجن، بما يطول شرحه، وبعضه موجود في كتب التنجيم والتعزيم؛ كـ«شمس المعارف»[(١)] وغيره، وعلمتُ أن مسلمًا من المسلمين لا يُقدم علىٰ ما يعلم أنه شرك ولا علىٰ تكفير مَن يعلم أنه غير كافر، ولكنه وقع الاختلاف في حقيقة الشرك فإذا هو بالاتفاق؛ اتخاذ غير الله -عز وجل- إلهًا من دونه أو عبادة غير الله -عز وجل-، فاتجه النظر إلىٰ معنىٰ (الإله) و(العبادة)؛ فإذا فيه اشتباهٌ شديد، فإنّ

---

(١) «شمس المعارف ولطائف العوارف» لأحمد بن علي بن يوسف البوني، والمتوفىٰ سنة (٦٢٢هـ). قال شيخنا: وهو من كُتُب السحر المشهورة المتداولة -وللأسف- بين كثير من الجهلة.اهـ. انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٠٦).

المعروف في تفسير (إله) قولهم: (معبود) أو: (معبود بحق)، ومعنىٰ العبادة مشبته جدًّا، فعلمتُ أن ذلك الاشتباه هو سبب الخلاف، وإذا الخطر أشد مما يُظن؛ لأن الجهل بمعنىٰ (إله) يلزمه الجهل بمعنىٰ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وهي أساس الإسلام، وأساس جميع الشرائع الحقَّة مِن قبل؛ قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥] [١].

وتأسيسًا علىٰ الّذي أنف من كلام العلامة المُعلمي اليماني -رَحِمَهُ اللَّهُ- نقول- وبه سبحانه نصول ونجول-:

الإله: هو المألوه الذي تألهه القلوب، بالمحبة، والخضوع، والانقياد، والخوف، والرجاء، وتوابع ذلك من: الرغبة، والرهبة، والتوكل، والاستغاثة، والدعاء، والذبح، والنذر، والسجود؛ وجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة؛ فهو إله، بمعنىٰ: مألوه؛ أي: معبود.

وسائر أهل اللغة علىٰ أن هذا هو معنىٰ الإله[٢].

قال الجوهري: أَلَهَ بالفتح، إلهةً؛ أي: عبدَ عبادةً، قال: ومنه قولنا: الله، وأصله: إله، علىٰ فِعال، بمعنىٰ مفعول؛ لأنه مألوه بمعنىٰ: معبود، كقولنا: إمام علىٰ وزن فِعال، بمعنىٰ: مفعول؛ لأنه مؤتمٌّ به؛ قال: والتأليه: التعبيد؛ والتألُّهُ: التنسك والتعبد.

---

(١) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٢/ ٣-٤).

(٢) يقول العلامة المقريزي : «ولهذا كان أصل (الله) الإله، كما قال سيبويه وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم».اهـ. «تجريد التوحيد المفيد» (ص٤١).

قال رؤبة:

لله دَرُّ الغانيـــاتِ المُــدَّهِ   سَبّحنَ واسترجَعنَ من تَألُّهِ(١)

وقال في «القاموس»: «أَلَهَ، إلهَةً، وأُلوهَةً: عَبَدَ، عبادةً؛ ومنه لفظ الجلالة؛ واُختلف فيه علىٰ عشرين قولًا؛ يعني: في لفظ الجلالة، قال: وأصله: إلهٌ، بمعنىٰ: مألوهٌ؛ وكل ما اتُخِذَ معبودًا: إلهٌ عند مُتَخِذِهِ؛ قال: والتألُّهُ: التَنَسُّكُ والتَعَبُّدُ»(٢).

يقول الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين -رَحِمَهُ اللهُ-: «وجميع العلماء من المفسرين، وشراح الحديث، والفقهاء، وغيرهم، يفسرون الإله بأنه: المعبود، وإنما غلط في ذلك بعض أئمة المتكلمين، فظن أن الإله هو القادر علىٰ الاختراع، وهذه زلة عظيمة وغلط فاحش، إذا تصوره العامي العاقل تبيّن له بطلانه، وكأن هذا القائل لم يستحضر ما حكاه الله عن المشركين في مواضع من كتابه، ولم يعلم أن مشركي العرب وغيرهم يقرون بأن الله هو القادر علىٰ الاختراع، وهم مع ذلك مشركون»(٣).

وفي بيان المعنىٰ -نفسه- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-: «وليس المراد بـ(الإله) هو القادر علىٰ الاختراع، كما ظنه مَن ظنه مِن أئمة المتكلمين؛ حيث ظنوا

---

(١) «مجموع أشعار العرب»، وهو مشتمل علىٰ (ديوان رؤبة بن العجاج) (ص١٦٥)، وانظر: «الكامل» لابن المبرد (٢/ ١٠٥١)، و«لسان العرب» (١/ ١٩٨).

(٢) انظر: «ترتيب القاموس المحيط» (١/ ١٧٣) للطاهر أحمد الزاوي، وانظر -للفائدة-: «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٢/ ٣٨٧وما بعدها)

(٣) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٢٩٦-١٩٧)، و«شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٤٢).

أن (الإلهية) هي: القدرة علىٰ الاختراع دون غيره، وأن من أقر بأن الله هو القادر علىٰ الاختراع دون غيره؛ فقد شهد أن لا إله إلا هو، فإن المشركين كانوا يقرُّون بهذا وهم مشركون، بل الإله الحق هو الذي يستحق بأن يُعبد فهو (إلهٌ) بمعنىٰ: (مألوه)؛ لا (إله) بمعنىٰ: (آله).

والتوحيد: أنْ يُعبد الله وحده لا شريك له، **والإشراك**: أن يُجعل مع الله إلهًا آخر، وإذا تبيَّن أن غاية ما يقرره هؤلاء النُّظَّار أهل الإثبات للقدر المنتسبون إلىٰ السُّنَّة إنما هو توحيد الربوبية، وأن الله رب كل شيء، ومع هذا فالمشركون كانوا مقرِّين بذلك مع أنهم مشركون، ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد، ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلمًا، فضلًا عن أن يكون وليًّا لله، أو من سادات الأولياء»[١].اهـ.

ويقول -أيضًا- العلامة المقريزي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- **والإلهية**: كون العباد يتخذونه -سبحانه- محبوبًا، مألوهًا، ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والإخبات والتوبة، والنذر، والطاعة، والطلب، والتوكل، ونحو هذه الأشياء»[٢].اهـ.

فهذه النقولات وغيرها مما هو في معناها تُبيِّن صراحةً مذهب أهل السُّنّة، واتفاقهم علىٰ أن معنىٰ (الإله) هو: (المعبود)، وبنظرة -ولو عَجلىٰ- في كتب التفسير نجد ظهور هذا المعنىٰ بجلاءٍ لا يخفىٰ إلا علىٰ غارق في ظلمات جهله، أو مغلوب بهواه علىٰ أمره[٣].

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٠١-١٠٢).

(٢) «تجريد التوحيد المفيد» (ص٣٨).

(٣) انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٤٣).

وحين يقرر عامة المتكلمين[١] أن غاية التوحيد هو إثبات الصانع، ويفسِّرون

---

(١) يقول عضد الدين الإيجي: «المرصد الثالث في توحيده -تعالىٰ-، وهو مقصد واحد، وهو أنه يمتنع وجود إلهين».
ويعرِّف القاضي عبد الجبار التوحيد -في اصطلاح المتكلمين- فيقول: «أما في اصطلاح المتكلمين؛ فهو: العِلم بأن الله - تعالىٰ - واحدٌ، لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات، نفيًا وإثباتًا علىٰ الحد الذي يستحقه، والإقرار به».
ويقول الرازي في تعريف التوحيد: «هو: عبارة عن الحُكم بأنّ الشيء واحد، وعن العلم بأن الشيء واحد، يقال: وحّدتهُ إذا وصفته بالوحدانية».
وفي «التعريفات» للجُرجاني: «التوحيد ثلاثة أشياء: معرفة الله - تعالىٰ - بالربوبية، والإقرار له بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة».
وفي «شرح المقاصد» للتفتازاني : «حقيقة التوحيد: اعتقاد عدم الشريك في الألوهية، وخواصها، ولا نزاع لأهل الإسلام في أن تدبير العالم، وخلق الأجسام، واستحقاق العبادة، وقدم ما يقوم بنفسه كلها من الخواص». اهـ.
فالواحد والأحد عند المتكلمين صفة سلبية ويريدون بها ثلاثة معان:
١- أن الله واحد في ذاته لا قسيم له.
٢- واحد في صفاته لا شبيه له.
٣- واحد في أفعاله لا شريك له.
والحاصل من تلك التعريفات أن التوحيد عند المتكلمين هو: صفة سلبية تقوم علىٰ العلم والإقرار والنفي المجرد، ولا يثبت لله منها شيءٌ من الصفات أو الكمالات.
وانظُر: «المواقف» (٣/ ٦٠)، «شرح الأصول الخمسة» (ص١٢٨)، «المطالب العالية» (٣/ ٢٦٢)، «التعريفات» (ص٥١)، «شرح المقاصد» (٤/ ٣٩).
وانظر -أيضًا-: «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٢/ ٣٣٢ - وما بعدها) للعلامة =

(الإله) بـ (القادر علىٰ الاختراع)؛ فإنهم يبنون علىٰ هذا الأصل الفاسد أنه لو استغاث المستغيثون ولاذ اللائذون بالأنبياء والصالحين، مع اعتقادهم بأن الله هو القادر المدبر والمتصرف فإن ذلك لا يكون شركًا، حيث إن تمام التوحيد -عندهم- هو توحيد الربوبية، وقد سبق أن هذا التوحيد ليس هو التوحيد الذي دعا إليه الانبياء والرسل عليهم السلام وليس هو التوحيد الذي يُنْجي من الخلود في النار، فتوحيدهم الذي يقررونه قد أقرت به الأمم جمعاء إلا شرذمة، وسيأتيك بيان هذا في موضعه بإذن الله.



=

اليماني، و«شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٦٤- وما بعدها)، و«الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية» (ص٣٤-٣٦) لآمال بنت عبد العزيز العمرو.

العبادة والعبودية- وصفًا وتعريفًا-

وتحقيق معنىٰ العبادة والعبودية هو من كُبرىٰ المسائل أيضًا، حيث إن غياب المفاهيم، وانحراف الأفهام عن المعاني الشرعية الصحيحة في هذا الباب هو الذي جعل كثيرًا من الناس يتخبطون في ظلمات الجهل وأودية الباطل، ظانين أنهم علىٰ بَيِّنة من الأمر، وجادَّة الطريق، فيُدخلون في الدين ما ليس منه، ويُخرِجون منه لُبّه وصُلْبَهُ، ذامِّين للتوحيد ذابِّين عن الشرك(١).

وأُسّ الإشكال عند المخالفين إنما هو راجع إلىٰ نقص علمهم بدينهم،فهم يجهلون أن الدعاء والاستغاثة- مثلًا- داخلان في مسمىٰ العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله -تعالىٰ-، وأن دعاء غير الله مما يدخل في مسمىٰ الشرك، وهكذا، فليس الخلل راجعًا إلىٰ أصل تسليمهم بوجوب إفراد الله بالعبادة، ولا إلىٰ أصل إقرارهم بالتوحيد، ولا إلىٰ أصل براءتهم من الشرك وأهله، وإنما الخلل راجع إلىٰ شيء آخر وهو تحقيق ما يدخل في حقيقة العبادة والتوحيد، مما كان مختصًّا بالله -تعالىٰ-، وتحقيق ما يدخل في حقيقة الشرك(٢).

وتحرير الكلام في مسألة العبودية والعبادة من أعظم المسائل فيما نحن فيه،

---

(١) يقول علوي الحداد- وبئس ما قال- : «وينبغي اليوم في هذا الوقت من الحوادث التي حدثت في الثّلم في الدين باعتقاد العامة قول بدعي أن الاستغاثة شرك، فالعالم المقتدىٰ به ينبغي له أن يظهر الاستغاثة ليُقتدىٰ به».اهـ«مصباح الأنام» (ص٦٠).

(٢) «إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي» (ص٢٦).

وبالرغم من الدلالات الواضحات والنصوص البينات التي لا اشتباه فيها في نفس الأمر، إلا أنّ من طوائف الأمة مَن ضلّت في مفهومها، وأضلت كثيرًا من الخلق من ورائها، فكان الولوج في أبواب الشرك، والدخول في أنواع من الانحرافات نتيجةً حتميةً لازمةً لذلك الجهل، وذياك الضلال، حتىٰ صارت صور الشرك الأكبر ليست محل سكوت أو اختلاف فحسب، بل وغدت مِن أنواع القُرَب التي يُرجىٰ بها الزلفىٰ عند الله -جل وعلا-[(١)].

وبيانًا لأصلِ المسألة نقول: مدار أصل العبادة علىٰ معنىٰ الذُّلّ والخضوع والانقياد، إلا أن معنىٰ العبادة أخصُّ من تلك المعاني، فليس كل ذُلٍّ وخضوع يكون عبادة حتىٰ يبلغ العابد المنتهىٰ والغاية فيهما؛ حينئذٍ يصح إطلاق اسم العبادة عليه بمعناها الكلي والشمولي.

وفي هذا يقول الراغب الأصفهاني : «**العبودية**: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا مَن له غاية الإفضال، وهو الله -تعالىٰ-، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾»[(٢)].

وجاء في «لسان العرب»: «وأصل العبودية الخضوع والتذلل»[(٣)].

ويقول الرازي: «**وأصل العبودية**: الخضوع والذل، والتعبيد التذليل، يقال: طريق مُعبّد»[(٤)].

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٢٣) .

(٢) «المفردات» (ص ٣٢٢).

(٣) «لسان العرب» (٦/ ٤٨).

(٤) «مختار الصحاح» (١٧٢).

وقد تُعرّف «العبادة» باعتبار الوصف القائم في العبد من الطاعات والمأمورات ظاهرًا وباطنًا.

وفي هذا المعنىٰ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة المأمور بها تتضمن معنىٰ الذل ومعنىٰ الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله -تعالىٰ- بغاية المحبة له»(١).

ويقول الشيخ أبو الثناء الألوسي : «**العبادة** : هي أعلىٰ مراتب الخضوع»(٢).

وقد تُعرّف «العبادة» باعتبار ما يُتعبد به، وهذا بالنظر إلىٰ ذات العبادة مجردًا عن تعلقها بالعبد، أو بفعل العبد لها.

ولعل أحسن التعاريف بهذا الاعتبار ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»(٣).

وقد تُعرّف العبادة أيضًا باعتبار المأمور به شرعًا، وذلك بالنظر إلىٰ مَن تُصرَف له العبادة، وهو رب العزة - جلّ وعلا- دون ما سواه.

يقول الإمام ابن جرير الطبري مُعرِّفًا العبادة -بهذا الاعتبار-: «هي الخضوع لله بالطاعة والتذلل له بالاستكانة»(٤).

والحاصل - مما سبق- أن تعريف العبادة - في اللغة وفي الشرع- مردُّه إلىٰ معنىٰ الخضوع والذل والانقياد، سواء كان هذا بالنظر إلىٰ قيامها في شخص العابد،

---

(١) «العبودية» مع «شرحها» للراجحي (ص ١٧).

(٢) «روح المعاني» (١/ ٣٩).

(٣) «العبودية» مع «شرحها» (ص ٦) للراجحي.

(٤) «تفسير الطبري» (١/ ١٨٤).

أو بالنظر إلىٰ ذات العبادة مجردة عن محلها، أو بالنظر إلىٰ المأمور به شرعًا[(١)].

ثم إنّ مَن فسَّر «العبادة» بمطلق الذُّلّ والخضوع فإنما ذلك باعتبار أصل المعنىٰ، لا باعتبار التمام والكمال، إذ ليس من لسان العرب إطلاق اسم العبودية علىٰ كل تذلل وخضوع، وإلا صار عامة الناس عابدين لمن يتذللون ويخضعون له من أصحاب المال أو الجاه أو السلطان، مع التنبيه علىٰ أنّ فيمن يتذلل لغيره نوعَ عبوديةٍ لذلك الغير -كلٌّ بحسبه-.

واستعمال الشرع للفظ العبودية جاء إطلاقه علىٰ كل من سوىٰ الله -تعالىٰ- باعتبار أنه مربوب مملوك له -سبحانه-.

كما وجاء إطلاقه علىٰ المملوك باعتبار خضوعه لسيده.

وسمىٰ الشرعُ الحرصَ الشديد علىٰ الدنيا، وتعلقَ القلب بها، وخضوعَ القلب لها بما يحول بينه وبين كل حقٍّ، سماه الشرع «عبادة» كما في قول النبي ﷺ: «**تَعِسَ عبدُ الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطِيَ رضي، وإن لم يُعط لم يَرْضَ**»[(٢)].

إلا أن أصل إطلاق العبادة في الشرع منصرف إلىٰ الحق الذي اختُصَّ الله -تعالىٰ- به والذي لا يجوز صرفه لغيره-سبحانه- وهو: كمال الذل والخضوع والانقياد له -جل وعلا-.

---

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٣٣).

(٢) «البخاري» كتاب الجهاد والسير - باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، برقم (٢٨٨٦) (٦/ ٩٩- «فتح الباري»).

فكل عبادة مصروفة لغير الله فهي وإن سميت : «عبادةً » في الاستعمال اللغوي والشرعي إلا انها عبادةٌ باطلة.

وكل عبادة مصروفة لله -جل وعلا- فهي عبادة صحيحة.

وهذا المعنىٰ هو الذي خاطب به المرسلون عليهم السلام أقوامهم، ففهموه من عبارته الاولىٰ، إذ ليس هو مصطلحًا جديدًا تخفىٰ عليهم معالمه[١].

وعلىٰ هذا؛ فمَن صرف شيئًا مِن العبادة لغير الله مما ثبت في الشرع أنه عبادة؛ فقد عَبَدَ ذلك الغير -سواءً اعتقد فيمن صُرفت له العبادة صفة من صفات الإله أو لم يعتقد، أو اعتقد فيه النفع والضر استقلالًا، أو لم يعتقد-؛ فذاك الصرف عبادة، بصرف النظر عن أيّ قيد أو شرط.

وما سبق بيانُه من تعريف للعبادة من كلام أهل العلم والإيمان دالٌّ علىٰ ما ذكرناه من غير أدنىٰ لَبس أو خفاء.

وأما المخالفون لأهل السنة فلهم في تعريف العبادة سبيل آخر غير سبيل المؤمنين؛ حيث يشترطون في العبادة حتىٰ تكون عبادة شرطين :

١ - اعتقاد الألوهية في المعبود واستحقاقه العبادة.

٢- اعتقاد التأثير المستقل لذلك المعبود[٢].

وبناءً علىٰ هذا التقييد الفاسد؛ فإنهم يقررون: أنه لا يَعتقد أحدٌ من المسلمين

---

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٢٤-١٢٧)- بتصرف وزيادات-.

(٢) «الدرر السنية في الرد علىٰ الوهابية» (ص٣١-٣٢)، وانظر الرد عليه في : «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٥٤).

ألوهية غير الله، ولا تأثير أحدٍ سوىٰ الله، فانتفىٰ الشرك عن الأمة بهذا، والحمد لله رب العالمين!!!

ولهذا يقولون : إن مسمىٰ العبادة لا يدخل في شيء من التوسل والاستغاثة وغيرهما، بل لا يشتبه بالعبادة أصلًا، فإن كل ما يدل علىٰ التعظيم لا يكون من العبادة، إلا إذا اقترن به اعتقاد الربوبية لذلك المُعَظَّم، أو صفة من صفاتها الخاصة بها[(١)].

يقول أحمد زيني دحلان – في تعريف الدعاء الذي يكون عبادة -: «وإنما النداء الذي يكون عبادة هو نداء من يعتقد ألوهيته واستحقاقه للعبادة، فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه»[(٢)].

ومخالفُو أهل السنة يُخرجون بهذا كثيرًا من الأعمال الشركية عن كونها شركًا، كدعاء الأموات والاستغاثة بهم، وصرف أنواع العبادة لهم، علىٰ اعتبار أن أصحابها ما أرادوا إلا التوسل والاستشفاع والتعظيم دون أن يقوم في قلوبهم اعتقاد استقلال المدعوِّين بالربوبية واستحقاق العبادة.

وعلىٰ هذا؛ فلا يكاد يوجد عبادة لغير الله واقعة في الارض إذ كان المشركون لا يرون في معبوداتهم هذا الاستقلال، بل كانت تلبيتهم المشهورة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»[(٣)].

---

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٥٥)، وانظر -للفائدة-: «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (١/ ٢٨٩-٢٩٦).

(٢) «الدرر السنية في الرد علىٰ الوهابية» (ص٣١) .

(٣) «مسلم»، كتاب الحج - باب التلبية وصفتها ووقتها، برقم (٢٨٠٧) من حديث ابن عباس (٨/ ٣٢٩- «شرح النووي»).

وبمثل هذه الشبهات الواهيات صارت الجاهلية الأولىٰ صورةً واقعيةً وحقيقةً محكيةً في أنحاء من بلاد المسلمين[(١)].

ويرحم الله الشيخ العلاّمة شمس الدين الأفغاني حينما قال: «فالمشركون الأولون- علىٰ هذا- ليسوا بمشركين، وليسوا عابدين لغير الله -تعالىٰ-؛ لأنهم إنما عبدوا الصالحين علىٰ أساس الشفاعة، لا علىٰ أساس الربوبية والاستقلال بالنفع والضر، ونفوذ المشيئة.

فلو كان تعريف القبورية للعبادة صحيحًا؛ لَلَزِمَ منه كون المشركين غير مشركين، وغير عابدين لغير الله؛ لكن التالي باطل، فالمُقدَّمُ مِثلُه»[(٢)].

أما وجه بطلان التالي فظاهر؛ لأن القبورية أيضًا يُسلِّمون أن المشركين السابقين كانوا مشركين بلا ريب، وأنهم عُبَّادُ غيرِ الله بلا امتراء؛ وإذا ثبت بطلان التالي - حتىٰ بشهادة الخصوم واعترافهم - ظهر بطلان المُقَدّم؛ وهو أن تعريف

---

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ١٥٣-١٦٠)، وانظر أمثلة علىٰ هذا في: «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (٢/ ٧٥٩ -وما بعدها) و(١٠٦٧ - وما بعدها) و(١٠٨٥-١٠٩٢).

(٢) أي: يلزم من تعريف المخالفين لمسمىٰ (العبادة) نفي الشرك عن المشركين، وذلك أن القبوريِّين ومُجوِّزي الاستغاثة يُقيّدون وقوع الشرك وتحققه باعتقاد الإلهية في المدعو، أو باعتقاد مِلْكِ النفع والضر استقلالًا! وهذه القيود والشروط غير موجودة أصلًا في قلوب وعقيدة المشركين- كما سيأتي بيانه-، وعلىٰ هذا فيلزمهم إحدىٰ قضيتين:

١- فإما أن ينفوا الشرك عن المشركين الأولين، الذين نصَّ القرآنُ صراحةً علىٰ شركهم، وهذه نتيجة باطلة، وكذلك مقدمتها مثلها في البطلان.

٢- وإما أن يلتزموا القول بشركهم، فيلزمهم بالتالي نقض تعريفهم للشرك،وهو المطلوب.

القبورية للعبادة تعريف باطل مزيف فاسد غير جامع لأفراده؛ بل غير صادق علىٰ شيء من أفراده.

ثم يقال : لو كان المشركون الأولون مشركين بالله وعابدين لغير الله؛ لزم منه أن يكون تعريف القبورية للعبادة باطلًا مزيفًا غير جامع لأفرادها؛ بل غير صادق علىٰ شيء من العبادات.

لكن المقدم حق؛ لأن المشركين السابقين مشركون حتىٰ باعتراف القبورية، وعابدون لغير الله حتىٰ بشهادة القبورية؛ فالتالي مثله؛ وهو بطلان تعريف القبورية، وكونه غير جامع لأفراده؛ بل كونه غير صادق علىٰ شيء من العبادات.

لأن القبورية يشترطون في تحقيق العبادة شروطًا لم تتوفر - أصلًا- في عبادة المشركين السابقين لآلهتهم، مع كونهم مشركين وعابدين لغير الله - حتىٰ باعترافهم وشهادتهم-[1]. اهـ.



(١) «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (١/ ٣٠٠-٣٠١).

الشرك الأكبر - حقيقته ومعناه -

يقول الشيخ مبارك الميلي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «بيان العلماء لمسائل الشرك اداء للأمانة، وقيام بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم رجاء لصلاح حال المسلمين، وأن لا يكونوا حُجَّةً علىٰ هذا الدين، ولا سُبّة بأفواه المُتَمَدِّنين، وهو غرض الذين ينهون عن السوء حين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤] مِمَّن حكىٰ الله عنهم مِن وُعّاظ بني إسرائيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل»[١].

وها هو -رَحِمَهُ اللَّهُ- يبث شكواه- وهو في المغرب البعيد - من قلة اهتمام العلماء بشأن الشرك، وبيان خطورته، مع اعتناء كثير منهم بالفروع الفقهية التي يندر وقوعها، أو حتىٰ عدم وقوعها.

فيقول: «...وستعجب معي من قلة اهتمام أكثر علمائنا بذلك، كأنْ لا حاجة بالمسلمين إليه؛ تجد في كلامهم علىٰ الفروع عناية بتفصيل أحكام مسائل نادرة، أو لا توجد عادة، ولا تجدهم يعنون تلك العناية بالأصول، فيُحَدِّدون الشرك، ويُفَصِّلون أنواعه، ويُعَدِّدون مظاهره حتىٰ يرسخَ في نفوس العامة الحذرُ منه، والابتعادُ من وسائله، ولا يفقد المتأخر نص من قبله في جزئية من ذلك»[٢].اهـ.

فمعرفة الشرك وطرائقه ووسائله من ضرورات كلمة التوحيد؛ حيث إنها

---

(١) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص٦١) للشيخ مبارك الميلي.

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٤٦-٤٧).

متضمنة البراءة منه، فالوقوع في شيء من الشرك ينقص التوحيد[١] أو يبطله.

ولذلك لما خفي معنىٰ الشرك علىٰ كثير من الناس صاروا يُقَرِّرون الشرك، وينقضون التوحيد، ويُنَفِّرون عنه، ومن هنا تظهر أهمية الكلام فيه.

وفي هذا الشأن يقول ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ-: «وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقرَّه، ودعا إليه وصَوَّبَهُ وحَسَّنَهُ، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره، أو شرٌّ منه، أو دونَه، فينقُضُ بذلك عُرىٰ الإسلام عن قلبه، ويعود المعروفُ مُنكَرًا، والمُنْكَرُ معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويُكَفَّرُ الرَّجُلُ بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويُبَدَّعُ بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع، ومَن له بصيرة وقَلْبٌ حَيٌّ يرىٰ ذلك عيانًا، والله المستعان»[٢].اهـ.

ومِن جميل ما حكاه الشيخ مبارك الميلي -أيضًا- وهو يصف لنا واقع الشرك بين الناس، مبيِّنًا خطورة إهمال الكلام فيه، وفي دقائقه-، قوله -رَحِمَهُ اللهُ- : «نَتَجَ عن قلة الخوض في هذا الموضوع أن صار الشرك أخفىٰ المعاصي معنىٰ، وإن كان أجلاها حكمًا، فلظهور حكمه وكونه من الضروريات ترىٰ المسلمين عامتهم، يتبرؤون منه، ويغضبون كل الغضب إن نُسبوا إليه، ولخفاء معناه وقع من وقع منهم فيه وهم لا يشعرون، ثم وجدوا مِن أدعياء العلم مَن يسمي لهم عقائد الشرك وأعماله وأسمائه بأسماء تدخل في عقائد الإسلام وأعماله، ثم يدافع عنهم

---

(١) وهذا إذا كان الشرك شركًا أصغر، وأما الشرك الأكبر فهو مُبطِلٌ ومناقضٌ لأصل التوحيد من كل وجه.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣-٣٤٤).

ويحشرهم في زمرة أهل السنة، حتىٰ ليخيل إليك أن العامي الواقع في حَمَأَةِ الشرك جهلًا واغترارًا أقربُ إلىٰ السنة والاستقامة من أولئك العلماء النصحاء المُؤْتَسين برسول الله ﷺ عن خبرة وصدق[١].

وبيانًا للمقصود نقول: إن أحسن وأوضح تعريف للحقائق والمسميات الشرعية هو ما كان من قول صاحب الرسالة ﷺ، فقد سُئل -عليه الصلاة والسلام-: أيّ الذنب أعظم؟ فقال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**».

والنِّدُّ؛ هو: العِدلُ والمِثلُ، وهو الذي ينازع غيره فيما كان من خصائصه، وجوهره، لكن المِثل يقال في أيّ مشاركة كانت، وأما (النِّدّ) فهو الذي ينازع غيره في خصائصه، فكل ندٍّ مثلٌ وليس كل مثلٍ ندًّا[٢].

فالله -تعالىٰ- وحده الخالق وما سواه مخلوق، وهو وحده المالك وما سواه مملوك، وهو وحده المدبِّر وما سواه مدَبَّرٌ له، وهو وحده المعبود وما سواه عابد، فهو وحده المستحق للعبادة.

فمَن صَرَف شيئًا من خصائص الله -تعالىٰ- لغيره فقد جعله ندًّا لله -تعالىٰ-، وذلك هو الشرك بالله[٣].

وقد جاء هذا المعنىٰ واضحًا في قوله -جل وعلا-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

---

(١) «الشرك ومظاهره» (ص٤٧).

(٢) انظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٨٩) للراغب، و«تذكرة الأريب» (١/ ٥٢) لابن الجوزي، و«تفسير الطبري» (١/ ١٨٧).

(٣) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٢٤٥-٢٤٦).

قال ابن عباس : أي: أشباهًا(١).

وقال مجاهد وقتادة : عُدَلاء(٢).

فمن صرف شيئًا من خصائص الرب لغيره من المخلوقين، فقد جعلهم عدلاء وأشباهًا له - سبحانه-.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ- : «فمَن عَدَلَ بالله غيره في شيء من خصائصه -سبحانه وتعالىٰ- فهو مشرك»(٣).

ويقول أيضًا : «وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالىٰ مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنّه لم يَعْدِل أحدٌ بالله شيئًا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك»(٤).اهـ.

ويقول الإمام الشوكاني -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئًا يختص به -سبحانه-»(٥).اهـ.

ويقول العلامة السعدي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «حقيقة الشرك بالله أن يُعبدَ المخلوقُ كما يُعبدُ الله، أو يُعَظَّمَ المخلوقُ كما يُعَظَّم الله، أو يُصْرَف له نوعٌ من خصائص الربوبية والإلهية»(٦).اهـ.

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ١٨٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ١٨٧).

(٣) «الفتاوىٰ» (١٣/ ١٩).

(٤) «الاستقامة» (١/ ٣٤٤).

(٥) «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» (ص٧٠).

(٦) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص٣٦٧).

والحاصل أن حقيقة الشرك ظاهرة بيّنة في الكتاب والسنة، ومدارها علىٰ مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائصه -سبحانه-، سواء كانت تلك المساواة في خصائص الربوبية، أو في الأسماء والصفات، أو كان ذلك في استحقاقه للعبادة وحده -سبحانه- لا شريك له»(١) .اهـ.

وأما المخالفون لأهل السنة فيقولون : «الشرك أن يعتقد الإنسان بألوهية غير الله، أو أن هناك مؤثِّرًا مدبِّرًا متصرِّفًا سوىٰ الله، فالذي يقدح في التوحيد هو اعتقاد التأثير لغير الله، أو استحقاق التاثير لغير الله، أما مجرد الدعاء والاستغاثة وطلب الحوائج من معبوداتهم فليست هي- عندهم- من الشرك أو موجباته في شيء(٢) .

فإذا بُيِّن لهم الأمر وتُلِيَتْ عليهم الآيات البينات، والنصوص الواضحات في بيان الشرك وحكم أهله، قالوا : تلك آيات نَزَلَتْ في المشركين الأولين، حيث كانوا يعتقدون في آلهتهم النفع والضر استقلالًا، وأما ما يفعله الناس اليوم من طلبٍ ودعاءٍ واستغاثةٍ ونداءٍ فليس فيه رائحة الشرك حتىٰ، فشرك الأمم السابقة - عندهم- كان في اعتقادهم ربوبية غير الله تصرُّفًا وملكًا وتدبيرًا، وليس من جهة جعلهم بينهم وبين الله وسائط يرجون من خلالها الزلفىٰ عند الله(٣) .

وهذا أوان الكلام عن حقيقة شرك المشركين الأولين، فذلك فرقان بين الحق والبطلان.

---

(١) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٢) انظر «الدرر السنية» (ص ٣١-٣١) لأحمد زيني دحلان.

(٣) انظر نماذج من كلام المخالفين في كتاب: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٢٦٨-٢٧٢).

حقيقةُ شرك الأولين، وبيانُ أن شركَهم واقعٌ من جهةِ صرفِ الدعاءِ والعبادةِ لغير الله، ومن جهةِ جعلِهم بينَهم وبين اللهِ وسائطَ وشفعاء

وينتظم الكلام هنا في مسائل :

□ أولها : إقرار المشركين بالله خالقًا ورازقًا ومدبِّرًا ومتصرِّفًا:

كانت العرب في جاهليتها تعتقد بوجود الله ﷻ وربوبيته، وأنه الذي يرزق من السماء والأرض والذي يملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر كله، له الأرض وما فيها، رب السماوات السبع ورب العرش العظيم بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه خلق السماوات والأرض وسَخَّرَ الشمس والقمر، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له، ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض، خلق السماوات والأرض وهو العزيز العليم[(١)].

يقول العلامة أحمد بن علي المقريزي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- :

«ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقرّوا بأنه -سبحانه- وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهيّة والمحبّة، كما قد حكىٰ الله -تعالىٰ- عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

(١) انظر «مجموع رسائل العقيدة» (٦/ ١٥٧-١٥٨) للعلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني، ضمن مجموع آثاره - رحمه الله تعالىٰ-.

[البقرة:١٦٥]، فلما سَوَّوْا غيره به في هذا التّوحيد كانوا مشركين[١].

◻ ثانيها: بيان هذا الأصل - تنصيصًا واستدلالًا-:

فمن ظن أن المشركين كانوا يجحدون الصانع، أو كانوا يعتقدون النفع والضر في آلهتهم وأصنامهم استقلالًا، أو لا يدعون الله ولا يعبدونه فقد قال قولًا معلوم البطلان من دين الإسلام، فدلائل هذا الأصل وشواهده في القرآن كثيرة لا تحصىٰ، حيث أخبر الله -تعالىٰ- عن حالهم، وبيّن مرادهم فقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس:١٨].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزُّمَر:٣].

وهذا إخبارٌ من الله ظاهرٌ في أن مراد المشركين وغايتهم هو التقرب إلىٰ الله عن طريق الوسطاء والشفعاء، ومع ذلك سمىٰ الله عبادتهم ومنها الدعاء باسم «العبادة» فتأمل.

ومثله ما يفعله بعض جهلة المسلمين اليوم، فتراهم يدعون ويستغيثون وينذرون ويذبحون للأولياء، فإذا نصحهم الناصح وأنكر عليهم المنكر قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

---

(١) «تجريد التوحيد المفيد» (ص٤٠) للمقريزي، وانظر: «الدر النضيد» (ص٦٨) للإمام الشوكاني.

وها هو الرازي يشير إلىٰ وجود هذا التشابه الكبير بين الفريقين، مِن مُشركي الجاهلية، ومشركي أهل هذا الزمان، حيث يقول في تفسير آية يونس السابقة:

«**ورابعها**: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان علىٰ صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متىٰ اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله -تعالىٰ- ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، علىٰ اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله»[١].

فليس شرك المشركين كائنًا من جهة إنكار وجود الصانع، فمن ظن هذا فهو أحد الجاهلين، إنما صار المشركون مشركين بجعلهم بينهم وبين الله وسائط وشفعاء، وآيات القرآن ظاهرة صريحة في بيان هذا المعنىٰ، ومنها قوله -تعالىٰ-: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[يونس: ٣١-٣٢].

وقوله - سبحانه-: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[المؤمنون: ٨٤-٨٩].

والآيات والشواهد في هذا المعنىٰ كثيرة.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١٨/ ٢١٠).

وقد روىٰ ابن جرير في «تفسيره» قال:

«حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة، أنه قال في قوله -تعالىٰ-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ قال: أي: تعلمون أنّ الله خَلقكم وخلق السموات والأرض، ثم تجعلون له أندادًا»(١).

و بسنده قال:

«حدثنا هناد، قال: حدثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن عكرمة، وذلك في تفسير قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]؛ قال: تسألهم من خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون : الله، فذلك إيمانهم بالله وهم يعبدون غيره»(٢).

وقال:

«حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؛ قال: هذا أنك لستَ تَلقىٰ أحدًا منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته»(٣).

وروىٰ أيضًا بسنده قال:

«حدثني يونس، قال: أخبرنا وهب قال: سمعت ابن أبي زيديقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ١٨٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١٣/ ٩٣).

(٣) «تفسير الطبري» (١٣/ ٩٤).

﴿أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؛ قال : ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أن الله ربه وان الله خالقه ورازقه وهو يشرك به... فليس أحد يشرك به، ألا ترىٰ كيف كانت العرب تلبي، تقول: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون ذلك»(١).اهـ

قال العلامة اليماني -رَحِمَهُ اللَّهُ- : «وحاصل اعتقاد المشركين في أصنامهم أنها تماثيل تُذَكِّر بالملائكة، وقد يكون فيها تمثال أو تذكار لله -عز وجل-، وأنها في نفسها لا تضر ولا تنفع، وإنما هي ذريعة إلىٰ عبادة من جُعلت تمثالًا أو تذكارًا له»(٢).

وفي تقرير المعنىٰ نفسه، يقول الشهرستاني-رَحِمَهُ اللَّهُ- : «وبالجملة: وضع الأصنام حيث ما قدروه إنما هو علىٰ معبود غائب حتىٰ يكون الصنم المعمول علىٰ صورته وشكله وهيأته نائبًا منابه وقائمًا مقامه، وإلّا فنعلم قطعًا أن عاقلًا ما لا ينحت جسمًا بيده ويصور صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وإله الكل، وخالق الكل، إذ كان وجوده مسبوقًا بوجوده صانعه وشكله يحدث بصنعته ناحته»(٣).اهـ.

وبالجُملة فإنَّ مَن له أدنىٰ نَهْمَة في العلم، والتفات إلىٰ ما جاءت به الرسل، يعلم علمًا ضروريًّا أن المشركين من كل أمة، وفي كل قرن ما قصدوا من معبوداتهم،

---

(١) (١٣/ ٩٥). وانظر- للفائدة-: «مجموع رسائل العقيدة» (٦/ ١٦٠-١٦١) للعلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني- ضمن مجموع آثاره، و«القول السديد» (ص٥٨) للشيخ عبد الرزاق البدر.

(٢) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٢/ ٥١١).

(٣) «الملل والنحل» (٢/ ٦١١).

وآلهتهم التي عبدوها مع الله إلا التَّسَبُّب، والتوسل، والتشفع، ليس إلا، ولم يدَّعوا الاستقلال والتصرف لأحد من دون الله، ولا قال به أحد منهم سوىٰ فرعون، والذي حاج إبراهيم في ربِّه، وقد قال -تعالىٰ- فيه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤]»[1].

□ ثالثها : الاستغاثة بين المشروع والممنوع:

الاستغاثة: هي طلب الغوث وإزالة الشدة، كالاستنصار: طلب النصرة، ولا يكون ذلك إلا عند الشدائد[2].

والاستغاثة نوع من أنواع الدعاء، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة وذلك لاختصاص الاستغاثة بالشدائد.

ولما كان الدعاء عبادة- كما سيأتي- كانت الاستغاثة نوعًا من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها لغير لله - جل وعلا- .

والمقصود هنا بيان أن الاستغاثة نوعان، استغاثة جائزة مباحة، واستغاثة شركية ممنوعة.

أما الجائز المباح منها فكأن يستغيث المخلوق بمخلوق آخر حي حاضرٍ قادر

---

(١) انظر: «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص ٤٢ - ٤٣).

(٢) انظر: «لسان العرب» (٦/ ٦٩٣)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٢٤) مادة غوث.

وللفائدة: انظر: «مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة» ضمن مجلة «الدراسات العقدية» (١/ ١٧)، و«الإبداع في مضار الابتداع» (ص٢٠٧) للشيخ علي محفوظ، و«الدر النضيد» (ص٩-١٣) للشوكاني- رحم الله الجميع-.

علىٰ الإغاثة حقيقة أو حكمًا[1]، فما كان بإمكان المخلوق الحي الحاضر القادر الإغاثة به فلا بأس أنْ يُستغاثَ به فيه، كمن يطلب من غيره قضاء حاجة، أو إنقاذ غريق، أو سداد دين، أو نحو ذلك، ومن هذا قول الله -تعالىٰ- عن موسىٰ: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[القصص:١٥].

وأما الممنوع منها: فكأن يستغيث المستغيث بالميت، أو بالمخلوق فيما لا يقدر عليه، كالنصر علىٰ الأعداء، أوالرزق، أوالهداية، أو حصول الشفاء، أو نزول المطر ونحوها.

يقول العلامة أحمد بن حجر آل بوطامي - الشافعي-رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في معرض كلامه علىٰ أنواع الاستغاثة- قال : «أو يستغيث بهم في الشدائد، كأن يقول: يا رسول الله أنقذني، يا رسول الله فَرِّجْ عني هذا الكرب، المدد يا عبد القادر يا جيلاني، أو يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يطلب من المخلوق شفاعة عند الله، أو مغفرة للذنوب، أو تحصيلًا للجنة أو نجاةٍ من النار، أو أن يرزقه ولدًا، أو أن يُطلِعَه علىٰ الغيب، أو نحو ذلك من الأمور التي ليست في قدرة المخلوق أن يفعلها، فإنه يكون بكل فعل من هذه الأفعال مشركًا بالله العظيم شركًا أكبر، لا يغفر الله له إلّا أن يتوب، لقوله -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن

---

(١) أي: في حُكم القادر، مما يقدر عليه جمهور الخلق في العادة وهذا كمن يستغيث لإنقاذ غريق بمن يُعلم منه أنه لا يحسن السباحة ولا يقدر عليها، فهذه الاستغاثة إن وقعت من المستغيث من غير اعتقاد بالمستغاث به فهي جائزة مباحة.

يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨].

أمّا ما كان في إمكان المخلوق الحي، فلا بأس بأن يستغيث به، مثل أن يطلب منه أن يعينه في قضاء حاجة، أو إنقاذٍ من غرق أو حريق أو ما سوىٰ ذلك»[١].

وكلّ استدلالات المخالفين علىٰ جواز الإستغاثة بالأولياء والصالحين منحصرةٌ في أنواعٍ ثلاثة:

أولًا: ما كان دليلًا علىٰ جواز الاستغاثة بالحي الحاضر القادر، وهذا لا حجة فيه، فيما نحن فيه.

ثانيًا: الضعيف والساقط من الأحاديث والقصص والمرويات، فهذا لا حجة فيه أيضًا، فلا تثبت العقائد أصلًا بهكذا استدلالات، فضلًا عن قبول معارضتها للصريح والصحيح من الآيات والأحاديث.

ثالثًا: ما كان خارجًا عن محل البحث لعدم دلالته-أو ضعفها-علىٰ المطلوب، ومِن هذا خلطهم بين مفهومَي التَّوسُّل والاستغاثة، واستدلالهم بأدلّة التّوسُّل المشروع علىٰ جواز الاستغاثة الممنوعة[٢].

□ رابعها : الاستغاثة بالأنبياء والأولياء والصالحين، شركٌ مُهين ومُحادّةٌ لتوحيد رب العالمين:

قلنا إن الاستغاثة نوعٌ من أنواع الدعاء، وقد دلَّ القرآن والسنة والإجماع المعتبر علىٰ تحريم دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والتصريح بأن ذلك من

(١) «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص٤٣-٤٥).

(٢) «مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة» ضمن مجلة «الدراسات العقدية» (١/ ٢١-٢٢).

الشرك الذي لا يغفره الله، دلّ على ذلك أدلة، منها :

* قوله -تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾[الأحقاف:٥].

* وقوله -جل وعلا-: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[يونس:١٠٦].

* وقوله -سبحانه-: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾[الأعراف:٣٧].

* وأخبر الله -تعالى- أن المشركين يدعون معه غيره في حال الرخاء، ويُخْلِصون له الدعاء في حال الشدة فقال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت:٦٥].

* ويقول - جلّ في علاه-: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[النحل:٥٣-٥٤].

* ويقول -سبحانه-: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾[الإسراء:٦٧].

وعليه؛ فقد نص الأئمة وتَواتَرَ النقلُ عن السلف على ما دل عليه ظاهر القرآن من عدم جواز الاستغاثة بالأموات، وأن ذلك شرك أكبر يخرج العبد من دائرة

الإسلام(١)، وهذا الأصل متقرر في الشريعة، وهو مما لا يُعلم فيه خلاف بين السلف، خلافًا لِشُذَّاذٍ من المتأخرين، وسيأتيك البيان بإذن رب العالمين.

□ خامسها : ليس عند مُجوِّزي الاستغاثة خبر مليح ولا نظر صحيح:

ثم إنّ مَن جوّز الاستغاثة بالأموات إنما عمدته كلام بعض المتأخرين، كما أن من جوّز التوسل بالجاه والذوات إنما حجته واتكاؤه أيضًا علىٰ المرجوح من كلام بعض أهل العلم كالإمام أحمد(٢) وغيره، وليس عمدته وحجته في ذلك كلام الله ورسوله ولا كلام السلف الأول.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- : «ومن ذهب إلىٰ الاستغاثة بالموتىٰ فقد شرع له دينًا لم يؤذن له به، وليس معه في الاستغاثة بهم سوىٰ فعل بعض المتأخرين وكلامهم، ممن ليس هو معدود من أهل الإجماع والاختلاف؛ فليس معه تقليد المقلدين، ولا اجتهاد المجتهدين، ومَن ابتدع بدعة في الدِّين بدون اجتهاد أهل الاجتهاد أو التقليد لأهل الاجتهاد كان من أهل الضلال والغيّ، لا من أهل الهدىٰ والرشاد.

وأما السؤال بهم؛ فغاية ما معه فيه قول بعض العلماء مع منازعة غيره له فيه وقد قال -تعالىٰ-: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

---

(١) قال شيخنا: ضمن ضوابط وشروط دقيقة في حكم تنزيل هذا الحكم علىٰ المعين.

(٢) انظر «الإنصاف» (٢/ ٤٥٦) لعلاء الدين المرداوي، وهذا الجواز من الإمام أحمد مخصوص بالتوسل بالنبي دون ما سواه. قال شيخنا : وهو مرجوح .

وقد نَصّ غير واحد من العلماء علىٰ أنه لا يجوز السؤال لله بالأنبياء والصالحين، فكيف بالاستغاثة بهم؟!

مع أن الاستغاثة بالميت والغائب مما لا نعلم بين أئمة المسلمين نزاع في أن ذلك من أعظم المنكرات ومن كان عالما بآثار السلف علم أن أحدًا منهم لم يفعل هذا وإنما كانوا يستشفعون ويتوسلون بهم بمعنىٰ أنهم يسألون الله لهم مع سؤالهم هم لله فيدعو الشافع والمشفوع له كما قال عمر بن الخطاب: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبيِّنا فاسقنا»[1].اهـ.

ويقول -رَحِمَهُ اللَّهُ- : «واتفق أيضًا أئمة المسلمين علىٰ أنه لا يشرع لأحد أن يدعو ميتًا ولا غائبًا، فلا يدعوه ولا يسأله حاجة، ولا يقول : اغفر لي ذنبي، أو: انصر ديني، او انصرني علىٰ عدوي، أو غير ذلك من المسائل، ولا يشتكي إليه، ولا يستجير به، كما يفعله النصارىٰ بمَن يُصَوِّرُون التماثيل علىٰ صورته، ويقولون: مقصودنا دعاء أصحاب هذه التماثيل والاستشفاع بهم، فمثل هذا ليس مشروعًا - ولا واجبًا ولا مستحبًا- في دين المسلمين، ومن فعل ذلك معتقدًا أنه يستحب فهو مبتدع ضال»[2].اهـ.

□ سادسها : سؤال الموتىٰ من دون الله هو أعظم الظلم والعدوان:

لذلك؛ كان سؤال غير الله - فيما لا يقدر عليه إلا الله- هو أعظم العدوان علىٰ

(١) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص٣٨)، وأثر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه البخاري في كتاب الجمعة - باب دعاء النبي: «**اجعلها عليهم سِني كسِني يوسف**»، برقم (١٠١٠) (٢/ ٦٣٧ «فتح الباري»).

(٢) «جامع المسائل» (٥/ ١٠٩) جمع عزير شمس.

خالص حق الرب -سبحانه-، وأشده انتهاكًا لحقيقة التوحيد وأصله .

يقول ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦) في معرض كلامه عن أنواع الشرك: «ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتىٰ، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شِرك العالَم؛ فإنّ الميِّت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلًا عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلىٰ الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده كما تقدم، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزل مَن استعان في حاجة بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك.

والميت محتاج إلىٰ من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة[1]، فعكَس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العبادة واستقضاء الحوائج والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانًا تُعْبَدُ، وسَمَّوْا قصدها حجًّا، واتخذوا عنده الوقفة وحلق الرأس، فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونِسبة أهله إلىٰ التَّنَقُّص للأموات، وهم قد تَنَقَّصوا الخالق بالشرك، وأولياءه

(١) وفي الباب أحاديث، منها ما رواه الإمام مسلم في «صحيحه» -وغيره- في كتاب الجنائز- باب ما يقال عند دخول المقابر والدعاء لأهلها، برقم (٢٢٥٧) (٧/ ٤٨ «شرح النووي»). من حديث بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلىٰ المقابر، فكان قائلهم يقول: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون،أسأل الله لنا ولكم العافية**».

المُوَحِّدين له الذين لم يشركوا به شيئًا، بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتَنَقَّصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أَمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، ولله خليلُهُ إبراهيم -عليه السلام- حيث يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٥-٣٦].

وما نجا من شَرَكِ هذا الشرك الأكبر إلا من جرَّد توحيد الله، وعادىٰ المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلىٰ الله، واتَّخَذَ اللهَ وَحْدَهُ وَلِيَّه وإلٰهه ومعبوده، فجرّد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذُلّه لله، وتوكّله علىٰ الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلىٰ الله، واستغاثته بالله، وأخلص قصده لله، متبعًا لأمره، متطلبًا لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمِل عمِل لله، فهو لله وبالله ومع الله».اهـ.

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- : «ومن أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان أن يدعىٰ غير الله، فإنّ ذلك من الشرك: ﴿ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾»[1].اهـ.

ويقول أبو الوفا ابن عقيل الحنبلي-رَحِمَهُ اللهُ-:«لما صعبت التكاليف علىٰ الجهال والطَّغَام؛ عدلوا عن أوضاع الشرع إلىٰ تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع مثل: تعظيم القبور وإكرامها بما نهىٰ عنه الشرع من إيقاد النيران، وتقبيلها،

(١) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص٩٦).

وتخليقها، وخطاب الموتىٰ بالحوائج، وكَتْبِ الرِّقاع فيها: (يا مولاي! افعل بي كذا وكذا)، وأخذ تربتها تبرُّكًا، وإفاضة الطِّيب علىٰ القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخِرَقِ علىٰ الشجر اقتداءً بمن عبد اللات والعُزَّىٰ»[١] .اهـ.

ويقول الإمام الشوكاني-رَحِمَهُ اللَّهُ- في كتابه «الدر النضيد»: «اعلم أن الرزية كل الرزية، والبلية كل البلية ؛ أمر غير ما ذكرنا – من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة –، وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور ومن المعروفين بالصلاح من الأحياء، من أنهم يقدِرون علىٰ ما لا يقدر عليه إلا الله -جل جلاله-، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله -عز وجل-، حتىٰ نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله، وتارة استقلالًا، ويصرخون بأسمائهم، ويُعَظِّمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعًا زائدًا علىٰ خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء، وهذا إذا لم يكن شركًا فلا ندري ما هو الشرك! وإذا لم يكن كفرًا فليس في الدنيا كفر»[٢] .اهـ.

ويقول الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «فهذه البدعة وهي الاستغاثة بالأموات وإنزال الحاجات بهم والتوسل إنَّما هو بقية من عبادة الأصنام؛ فإنَّ الجاهلية كانوا يستغيثون بهم ويطلبون الحاجات منهم، وكلُّ بدعة ضلالة، كما ثبت في الأحاديث[٣]، وأيُّ ضلالةٍ أعظم من عبدٍ يُنزل حاجاته بالأموات ويعرض

---

(١) نقله عنه تلميذه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٥٥٣،٥٥٤-«المنتقىٰ النفيس»)، ونقله ابن القيم كما في «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٦٤-٣٦٥) تحقيق: الشيخ علي الحلبي.

(٢) «الدر النضيد» (ص ٢٨).

(٣) انظر: «ارواء الغليل» (٣/ ٧٣).

عن باري البريات.

وقد ثبت أنَّه ﷺ بايعه جماعة من الصحابة علىٰ أن لا يسألوا الناس شيئًا، فكان أحدهم إذا سقط سوطه وهو علىٰ راحلته لم يسأل من يناوله، بل ينزل بنفسه(١)، كلُّ هذا لتفرد الله بالسؤال وطلب الحاجات»(٢).اهـ.



(١) ومن ذلك ما صح عن ثوبان، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَنْ يَتَقَبَّلُ لِي بِوَاحِدَةٍ أَتَقَبَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟**» قُلْتُ: أَنَا، قَالَ: «**لا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا**»، قَالَ: فَكَانَ ثَوْبَانُ يَقَعُ سَوْطُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِيهِ، حَتَّىٰ يَنْزِلَ فَيَأْخُذَهُ. رواه أحمد (٥/ ٢٧٧) وابن ماجه في «سُننِه» كتاب الزكاة - باب كراهية المسألة، رقم (١٨٦٤) (٢/ ١١٤- «صحيح ابن ماجه»)، وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٣٦٠٠).

(٢) «الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف» (ص١٠٧).

قاعدة نافعة

□ شرائع الدين وحقائق التوحيد، قد وقع بيانها علىٰ وجه الكمال والتمام، وعدم نقل ما تتوافر الهمم والدواعي علىٰ نقله مع انتفاء المانع دليل علىٰ العدم:

ومن الأصول الكلية المقررة -مما لها تعلُّق أصيل في هذا الباب- أنّ شرائع الدين وحقائق التوحيد قد وقع بيانها في موارد الشريعة علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها وأبينها.

ولو كانت الاستغاثة بالانبياء والأولياء والأموات من الجائزات او المستحبات في الدين، لوقع بيان ذلك في الشريعة، ولتواتر نقله عن السلف، ولأرشد رسول الله ﷺ أُمَّتَهُ إليه، ولَدلَّهم عليه، مُبيِّنًا ذلك أحسن بيان، فهو خير مَن بَيَّنَ ونَصَحَ وعَلَّمَ.

«فإنه ﷺ قد عَلَّمَ أُمَّتَه كل خير ونهاهم عن كل شر[1]، حيث عَلَّمَهُم أدق الأشياء، فعلمهم صلاة الاستخارة، وآداب اللباس والاستنجاء، وعلمهم أذكار الصباح والمساء والدعوات عند العوارض من الهم والغم والأخواف؛ بل قال لهم:

---

(١) كما في «صحيح مسلم»، كتاب الإمارة- باب وجوب بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالاول، برقم (٤٧٥٣) (١٢/ ٤٣٦ «شرح النووي») عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «.. **إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته علىٰ خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم...**» -الحديث-.

«**من أصيب بمصيبة فليذكر مصيبته بي**»[١]، وعلمهم التأسية عند المصايب، ولم يأت عنه حرفٌ أنَّه قال: من نزل به أمر فليستغث بي»[٢].

وقد روىٰ الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر - رضي الله عنه- قال: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا[٣].

«فهل سمعتم - معاشر العقلاء- ان أحدًا في زمانه ﷺ أو ممن بعده في القرون الثلاثة المشهود لأهلها بالنجاة والصدق، وهم أعلم منا بهذه المطالب، وأحرص علىٰ نيل مثل تيك الرغائب - استغاث بمن يزيل كربته التیٰ لا يقدر علىٰ إزالتها إلا الله -سبحانه-، أم كانوا يَقْصُرُون الاستغاثة علىٰ مالك الأمور ولم يعبدوا إلا إياه.

ولقد جرت عليهم أمور مهمة وشدائد مدلهمة في حياته ﷺ وبعد وفاته. فهل سمعت عن أحد منهم أنه استغاث بسيد المرسلين ﷺ! أو قالوا: إنا مستغيثون بك يا رسول الله! أم بلغت أنهم لاذوا بقبره الشريف، وهو سيد القبور، حين ضاقت منهم الصدور! كلا! لا يمكن لهم ذلك، وإن الذي كان بعكس ما هنالك، فلقد أثنىٰ الله -تعالىٰ- عليهم ورضي عنهم، فقال عز من قائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٨٦)، والدارمي في «السنن» (برقم٨٥ و٨٦) - مرسلًا-، وهو في «الصحيحة» برقم (١١٠٦).

(٢) انظر: «الانصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف» للصنعاني (ص١٠٨).

(٣) «المسند» (٥/ ١٥٣)، ورواه ابن حبان في «صحيحه» كما في «موارد الظمآن» (برقم ٧١)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الموارد» (١/ ١١٩) .

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال:٩] مبينًا لنا -سبحانه- أن هذه الاستغاثة هي أخص الدعاء، وأجلىٰ أحوال الالتجاء»[١].

وفي نفس المعنىٰ يقول الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : «فلم يُعْلَمُ أنَّه -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- استغاث برسولٍ مِن أولي العزم ولا غيرهم عند الشدائد التي لاقاها؛ بل كان أعظم ما لاقاه منها يوم الطائف، فكان دعاؤه الدعاء المعروف[٢] واللَّجَأ إلىٰ الله -تعالىٰ-.

وكذلك أصحابه من بعده لا يُعْلَمُ عن أحد منهم أنَّه استغاث به -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- بعد موته، ولا يمكن أحدٌ يأتي بحرفٍ واحدٍ عن أصحابه أنَّه قال: يا رسول الله ويا محمد مستغيثًا به عند شدة نزلت به؛ بل كلٌّ يرجع عند الشدائد إلىٰ الله -تعالىٰ-، حتىٰ عُباد الأصنام إذا مَسَّهَم الضُرُّ في البحر ضل من يدعون إلا إياه، وهذا خليل الله إبراهيم لما أرمي به إلىٰ النار لاقاه جبريل في الهواء فقال له: هل من حاجة؟ قال: أما إليك فلا[٣]، وهذه الأدعية النبوية المأثورة قد ملأت كتب الحديث

---

(١) من كلام العلامة نعمان الآلوسي في كتابه «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» (ص٥١٢).

(٢) قال شيخنا : ضعيف.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٣٥١ ت. سلامة) : «وذكر بعض السلف أنَّه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال: «**ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلىٰ**»».اهـ.

روىٰ الخبر ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٦) عن معتمر بن سليمان التيمي عن بعض أصحابه، ولم يصحّ مرفوعًا.

ليس منها حرفٌ واحدٌ فيه استغاثةٌ بمخلوق وسؤالٌ بحقه»[(١)].

◻ مجازفات وانحرافات:

قارن ما سبق نقله وتقريره، مع ما قاله الفقيه -الشافعي- شهاب الدين الرملي[(٢)]- عفا الله عنا وعنه- المتوفىٰ سنة (٩٥٧هـ) حيث جاء في «فتاويه» ما نصه:

«(**سُئِلَ**): عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد: (يا شيخ فلان)، (يا رسول الله)، ونحو ذلك من الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين، فهل ذلك جائز، أم لا، وهل للرسل والأنبياء والأولياء والصالحين والمشايخ إغاثة بعد موتهم، وماذا يرجح ذلك؟

(**فأجاب**): بأن الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين جائزة وللرسل والأنبياء والأولياء والصالحين إغاثة بعد موتهم؛ لأن معجزة الأنبياء وكرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم.

أما الأنبياء فلأنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار وتكون الإغاثة منهم معجزة لهم.

والشهداء أيضًا أحياء شوهدوا نهارًا جهارًا يقاتلون الكفار.

---

(١) «الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف» (ص١٠٥-١٠٦).

(٢) **شهاب الدين -الأب-**؛ هو: صاحب «الفتاوىٰ»، وجامع «الفتاوىٰ» هو ابنه «شمس الدين» صاحب «نهاية المحتاج».

وأما الأولياء؛ فهي كرامة لهم فإن أهل الحق علىٰ أنه يقع من الأولياء بقصد وبغير قصد أمور خارقة للعادة يجريها الله -تعالىٰ- بسببهم، والدليل علىٰ جوازها أنها أمور ممكنة لا يلزم من جواز وقوعها مُحَالٌ، وكل ما هذا شأنه فهو جائز الوقوع»[١].اهـ.



(١) (٤/ ٣٨٢)، وبنحوِه في «إرغام المُريد» (ص٢٣) للكوثري، وكذا في «المدخل» (١/ ٢٥٧-٢٥٨) لابن الحاج، وهذا الكتاب - أعني المدخل- كتاب متداول، وهو نافع في بابه إلا أنه مؤلفه- رحمه الله وعفا عنه- قد وقع في بدعٍ وأخطاء كبار تستوجب علىٰ المهتمِّين تحقيقه والعناية به عناية تكمل فوائده، وتستدرك أخطاءه وفوائته، وانظر نماذج من الضلال من مثل كلام الرملي -عفا اللهُ عنه- في كتاب «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٣٨٩-٣٩٨).

ردودٌ وتعقبات

□ حقيقة حياة الأنبياء - عليهم السلام-:

أما حياة الأنبياء-عليهم السلام- فهي حياة حقيقية، ولكنها حياة من نوع آخر، فهي ليست حياة دنيوية من جنس المعهود، كما أنَّها ليسَت حياةً أُخرويَّةً، ولا تلازم بين إثبات حياتهم في القبور وبين أن تكون هذه الحياة من جنس الحياة الدنيا.

وما قاله الفقيه الرملي- عفا الله عنا وعنه- ناشيءٌ عن توهمِ أن حياة الانبياء في قبورهم هي من نوع الحياة في الدنيا التي تقتضي تعلق الروح باستمرار علىٰ الوجه الذي يكون في الدنيا، وهذا خلاف ما عليه أهل التحقيق والنظر، بل وخلاف صريح الدليل والأثر، ففي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره -**بإسنادٍ حسن**- من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما مِن أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلّا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتىٰ أردَّ عليه السلام**»[1].

وفي رد الروح حالَ السلامِ إشارةٌ إلىٰ أن هذه الحياة هي حياة من نوع خاص، حيث لم يقل الأكثر من أهل العلم بأن هذا الرد يقتضي استمرار الروح في الجسد، ولا قال أحدٌ أن ذلك يستلزم إثبات حياة نظير الحياة المعهودة مستندًا بذلك إلىٰ دليل.

---

(١) رواه أبو داود في السنن برقم(٢٠٤١) وقال العلامة الألباني في «المشكاة» (١/ ٢٩١)- التحقيق الأول- : «إسناده حسن»، ورواه أحمد في المسند(٥/ ٢٢٧) وهو في الصحيحة برقم (٢٢٦٦) .

نعم؛ كثير من أهل العلم وشراح الحديث لم يوافقوا علىٰ هذا المعنىٰ فقالوا: بل الروح مستمرة في الجسد، ومعنىٰ : «**إلا رد الله إلي روحي**»؛ أي: إلا (وقد) رد الله علي روحي قبل ذلك فَأَرُدَّ عليه، وعللوا : بأن عَودَ الروح حال السلام يقتضي استغراق الزمان كُلِّهِ فِي ذَلِكَ لِاتِّصَالِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ مِمَّنْ لَا يُحْصَىٰ كَثْرَةً[١]، ويلزم منه تأليم الجسد الشريف بتكرار خروج الروح منه، كما ويستلزم منه حصول موتات كثيرة، وهذا باطل[٢].

والحق- كما قلنا- أن تلك التعليلات ضعيفةٌ نشأت من ظنهم- عفا الله عنا وعنهم- أن تعلق الروح بالجسد في البرزخ هو من جنس تعلقها به في الحياة الدنيا، وهذا خطأ، وهو من باب قياس الشاهد علىٰ الغائب، فأمور الآخرةِ لا تُدْرَكُ بالعقلِ وأحوالُ البرزخِ أشبهُ بأحوالِ الآخرةِ[٣].

وفي تقرير هذا المعنىٰ يقول الحافظ ابن عبد الهادي -رَحِمَهُ اللَّهُ- : «فإن قوله: «**إلا رد الله علَيّ روحي**» بعد قوله: «**ما من أحد يسلِّم علَيّ**» يقتضي رد الروح بعد السلام، ولا يقتضي استمرارها في الجسد ولْيُعْلَم أنَّ ردّ الروح إلىٰ البدن وعودها إلىٰ الجسد بعد الموت لا يقتضي استمرارها فيه، ولا يستلزم حياة أخرىٰ قبل يوم النشور نظير الحياة المعهودة، بل إعادة الروح إلىٰ الجسد في البرزخ إعادة برزخية، لا تزيل عن الميت اسم الموت، وقد ثبت في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور في عذاب القبر ونعيمه في شأن الميت[٤]، وحاله أن روحه تعاد إلىٰ جسده،

(١) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٩٦) تحت حديث رقم (٣٤٤١).

(٢) انظر: «رسالتان في حياة الأنبياء» (ص٥٥و٧٩-٨١).

(٣) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٩٦).

(٤) رواه جماعة منهم: الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧-٤٠)، وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧- =

مع العلم بأنها غير مستمرة فيه وأن هذه الإعادة ليس مستلزمة لإثبات حياة مزيلة لاسم الموت، بل هي أنواع حياة برزخية، والحياة جنس تحته أنواع، وكذلك فإثبات بعض أنواع الحياة لا يزيل اسم الموت كالحياة البرزخية وإثبات بعض أنواع الموت لا ينافي الحياة كما في الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ أنه كان إذا استيقظ من النوم قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**»[1] وتعلق الروح بالبدن واتصالها به يتنوع أنواعًا.

أحدهما: تعلقها به في هذا العالم يقظة ومنامًا.

الثاني: تعلقها به في البرزخ والأموات متفاوتون في ذلك فالذي للرسل والأنبياء أكمل مما للشهداء، ولهذا لا تبلىٰ أجسادهم، والذي للشهداء أكمل مما لغيرهم من المؤمنين الذين ليسوا بشهداء.

والثالث: تعلقها به يوم البعث الآخر، ورد الروح إلىٰ البدن في البرزخ لا يستلزم الحياة المعهودة، ومن زعم استلزامه لها لزمه ارتكاب أمور باطلة مخالفة للحس والشرع والعقل.

وفي الجملة رد الروح علىٰ الميت في البرزخ، ورد السلام علىٰ من يسلم عليه لا يستلزم الحياة التي يظنها بعض الغالطين، وإن كان نوعَ حياةٍ برزخية وقول من زعم

=

٢٨٨)، وقال الحاكم: **صحيح** علىٰ شرط الشيخين، وأَقَرَّه الذهبي، وقال العلامة الألباني: وهو كما قالا، انظر «أحكام الجنائز» (ص ١٩٨-٢٠٢) تحت فصل -الدفن وتوابعه-.

(١) «صحيح الإمام مسلم»، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، برقم (٦٨٢٥) (١٧/ ٣٧ - «شرح النووي»).

أنها نظير الحياة المعهودة مخالف للمنقول والمعقول، ويلزم منه مفارقة الروح للرفيق الأعلىٰ وحصولها تحت التراب قرنًا بعد قرن، والبدن حي مدرك سميع بصير تحت أطباق التراب والحجارة ولوازم هذا الباطلة مما لا يخفىٰ علىٰ العقلاء.

وبهذا يعلم بطلان تأويل قول من قال: «**إلّا ردّ الله عليّ روحي**» بأن معناه : إلا وقد ردّ الله عليّ روحي، وإن ذلك الرد مستمر، وأحياه الله قبل يوم النشور، وأقره تحت التراب واللبن.

فيا ليت شعري هل فارقت روحه الكريمة الرفيق الأعلىٰ؟ واتخذت بيتًا تحت الأرض مع البدن، أم في الحال الواحد هي في المكانين؟[1] اهـ.

◻ معجزات الأنبياء منقطعة بموتهم إلا معجزة القرآن:

وأما دعوىٰ الفقيه الرملي من أن معجزاتهم- عليهم السلام- لا تنقطع بموتهم فذلك من أفسد الفاسد، نعم؛ ما كان من المعجزات دائمًا مستمرًّا ثبت به الخبر والشرع، فهذا يقال باستمراره ودوامه، فهذه معجزة القرآن دائمة إلىٰ قيام الساعة، وأما أن يُعَدَّىٰ هذا القول إلىٰ سائر المعجزات فهو قول لا يستأهل حكايته، فأين معجزة عيسىٰ ﷺ من إحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه والأبرص؟ وأين هي آيات موسىٰ التسع ﷺ وأين معجزات إبراهيم ونوح وسليمان ﷺ ؟

ولفجاجة هذا القول وخروجه عن حد المعقول والمنقول قال الامير محمد بن إسماعيل الصنعاني-رَحِمَهُ ٱللَّهُ- واصفًا تلك المقالة-: «وهذا كلام كما يقال: «لحم

---

(١) «الصارم المنكي» (ص٢٩٧-٢٩٨)، وانظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤٥٠)، و«شرح نونية ابن القيم» لهراس (٢/ ٤-٢٢).

جَمَلُ غَثٍّ علىٰ جَبَلٍ وَعِرٍ لا سَمينٌ يُنتقىٰ ولا سَهْلٌ فيُرتقىٰ»[(١)]، فأيّ دعوىٰ للنبوة بعد الموت، وأيّ تحدي، وأيّ معجزة»[(٢)].اهـ.

□ ليست حياة الشهداء حياة دنيوية من جنس المعهود، بل هي حياة غيبية، ليست دنيوية ولا أخروية:

وأما ادعاء أن حياة الشهداء هي حياة دنيوية،وأنهم شوهدوا يقاتلون جهارًا نهارًا كرامة!!! فهذا من عجائب الدنيا وغرائب الزمان[(٣)]، ولعل الفقيه شهاب الدين الرملي حكىٰ ذلك عمن رأىٰ جنيًّا علىٰ صورة من مات فظنه الشخصَ نفسَه؟! -وهذا كثير معروف-، أو لعله حدث عمن رأىٰ ذلك رؤيا منام، أو من وحيٍ شيطاني أو إلهام؟!!

(١) والمعنىٰ: أن تلك المقالة كحال جمل هزيلٍ لا خير فيه، ومع ذلك لا يُنال ولا يُتَمَكَنُ منه إلا بالمشقة، وقد جاء هذا المعنىٰ في حديث أم زرع- المشهور- الذي رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث عائشة- رضي الله عنها-، وفيه قولها: زَوجي لحمُ جملٍ غَثٍّ علىٰ رأسِ جبلٍ لا سهلٍ فَيُرْتَقَىٰ ولا سمينٍ فَيُنْتَقَلُ...، والحديث رواه الإمام البخاري في كتاب النكاح - باب حسن المعاشرة مع الأهل، برقم (٥١٨٩) (٩/ ٣١٦- «فتح الباري»)، والإمام مسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- باب ذكر حديث أم زرع، برقم (٦٢٥٥) (١٥/ ٢٠٨ - «شرح النووي»).

(٢) «الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف» (ص١٠٤) للصنعاني.

(٣) وإن أعجبْ فعجبٌ ما حكاهُ الكوثري -نقلًا عن الأجهوريّ-: «الولي في الدنيا كالسيف في غمده فإذا مات تجرد منه فيكون أقوىٰ في التصرف».اهـ.
«إرغام المريد» (ص٢٢).

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : «ولكن كثيرًا من الناس يدعو الموتىٰ والغائبين من الشيوخ وغيرهم، فتتمثل لهم الشياطين، وتقضي بعض مآربه لتضله عن سبيل الله كما تفعل الشياطين بعُبّاد الأصنام وعُبّاد الشمس والقمر، تخاطبهم وتتراءىٰ لهم، وهذا كثير يوجد في زماننا وغير زماننا»[1].

وما دام إيرادنا هذا ممكنًا فإنّ إيراد الفقيه الرملي يصير في مهب الريح، بل إن احتمالاتِنا هذه أولىٰ بالاعتبار من تلك الاحتمالات المتهاوية، حيث دل علىٰ مثلها الواقع الصادق الصحيح .

ثم إن الاستدلال علىٰ إمكان وقوع ذلك كرامة للولي الميت محتجًّا بدليل الإمكان العقلي فيه خروج عن حد العلم الصحيح، فضلًا عما فيه من مناقضة صريحة لنصوص الكتاب العزيز.

وفي مثل هذا قال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في رسالته «الرد علىٰ من زعم أن الأولياء يُدْعَوْنَ ويتصرفون وأن ذلك إنما يقع كرامة».

قال: «وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المُصَدَّق، ومخالفةُ عقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة»[2].

فليس كل ما أمكن وقوعه عقلًا صح اعتباره شرعًا، فكل واقعٍ كونًا مخالفٌ

---

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٧٢)، و«الرّد علىٰ المنطقيِّين» (ص١٠٦)، و«تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص٨٧).

(٢) «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص٦٠-٦١).

لنصٍ شرعًا فهو باطل، فلو قيل: جائزٌ في الآخرة أن يجعل الله الرسل - عليهم السلام- في النار خالدين فيها أبدًا، وأن يجعل أعداءه في الجنان خالدين فيها أبدًا، مستدلًّا بأن ذلك ممكنٌ عقلًا[١]، لعُدّ هذا قبيحًا في الشرع وفي العقل، فهذا وإن كان من جهة الإمكان العقلي ممكنًا، ولكنه ممتنع شرعًا، وذلك لما تقرر في موارد الشريعة من كمال عدل الرب- سبحانه- وتنزهه عن الظلم.

□ الكرامات؛ إما رحمانية وإما شيطانية، والشرع فرقان بين هذه وتلك:

ثم إنه لا يجوز التسليم بأن الكرامات هي كرامات رحمانية إذا خالفت نصوص الشريعة.

والحقّ أنّ كثيرًا ممن يورد هذه الإيرادات ويستدل بهذه الاستدلالات المتهافتة المتهاوية، إنما هم في حقيقة الأمر يُعَظِّمون العقل والذوق، وينتقصون الشرع والنص المعصوم، فليس كل ما كان ممكنًا عقلًا صحّ اعتبارُه شرعًا، نعم؛ في كرامة الولي خرق للعادة غالبًا أو أحيانًا[٢]، بل اعتبارها موقوف علىٰ غير مخالفة أو نقض للشرع، فإذا خالفت الكرامة شرعًا أو نصًّا كانت حالًا شيطانيةً، لا كرامة رحمانية، وهذا فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ فلْيُعْلَم[٣].

ثم إن فحص النقول، وسَبْر المنقول قبل نشره وإيراده هو علامة التحقيق عند

---

(١) وهذا جائز علىٰ أصول الأشاعرة، وبحثوا ذلك في مبحث امتناع الظلم علىٰ الله، وليس هذا مقام بيانه، يُنظَر في ذلك: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/ ١٣٢٣).

(٢) وإن لم يكن ذلك من شرطها.قال شيخنا: فالكرامة لزوم الاستقامة كما يقول شيخ الإسلام.

(٣) انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٥١٥-٥١٩).

أهل الشأن، ودون ذلك فصاحب النقل حاطب ليل لا يميز بين السواد والبياض.

مـــا زَكىٰ تفاح لُبنانَ عــلىٰ   حَسَكِ السَعْدانِ في ذَوقٍ مَذَرْ

هكـــذا في نَظَـرِ الأعـــشىٰ   زَهْرُ رَوضٍ وهَشيمِ المُحتَظَر

□ **خلاصة الجواب:**

وبالجملة؛ فإن حياة الأنبياء في قبورهم إنما هي حياة خاصة، فليست هي من جنس الحياة الدنيوية، فالاستدلال بهذه الحياة للتوصل إلىٰ جواز الاستغاثة بهم عليهم السلام هو شرك صريح واعتقاد باطل قبيح.

«فقياس حال الموت بحال الحياة هو قياس مع الفارق، لا يُسلَّم به أبدًا، فيحتاج المدعي إلىٰ دليل يجوز ذلك، ولن يجد إلا ما يدل علىٰ نقيض مراده، فالاستغاثة بهم عليهم السلام في قبورهم هي من جنس استغاثة المشركين السابقين بالأنبياء والصالحين»[(١)]، ولا فرق.

ولقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم تلك العقيدة تفسيرًا عمليًّا، وكذلك أصحابه من بعده، حيث لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه استغاث برسول من أولي العزم أو غيرهم من الرسل عليهم السلام، كما لم ينقل عن الصحابة -أفرادًا او مجتمعين- أنهم استغاثوا به بعد موته، وهذا الترك منهم لم يكن عن غفلة أو نسيان، فهُم أحرص الناس علىٰ الحق وأولاهم به،وهذا يدل علىٰ أن تركهم مقصود،وذلك دالٌّ علىٰ تفريقهم بين حال حياتهم وموتهم عليهم السلام في أمر الاستغاثة والاستشفاع.

---

(١) انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤١١).

وكل ما يُروىٰ في هذا الباب عن الأئمة كالإمام مالك[1] وغيره، إنما هو كذب لا يصح، وهذا معروف عند أهل العلم من أصحاب الحديث وحذاق الصنعة.

فحقيقة التوحيد- لمن عرف - هو : صرف السؤال والتَعَلُّق والتَألُّه والخضوع لرب العباد والرغبة إليه -سبحانه- وحده لا شريك معه،مع الاعتقاد أنه المالك المدبر المتصرف، وما كان ذلك معناه فصرفه لغير الله شرك، فاعتقاد الداعي في المدعوّ قُدرةً وتصرُّفًا وتدبيرًا هو الأصل الذي ينتقض به التوحيد، وينفرط به عقده، ثم التذلل والانكسار والسؤال والدعاء والاستغاثة كل ذلك فرعٌ عنه، فالدعاء هو العبادة، والاستغاثة نوعٌ منه، وبمقدار ما يصرف العبد من دعاءه وسؤاله وتعلقه وتذلُّله لغير الله، بمقدار ما يكون فيه نوع عبودية لذلك الغير، والله الهادي.



(١) انظر « جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة» (ص ٤٢٦)، وسيأتي الكلام عليها.

(فائدة نفيسة) : حُكم المخالف -بين الإعذار والإهدار-

والذين يُجَوِّزون الاستغاثة بالأنبياء والصالحين هم في ذلك أصنافٌ ومراتب، فقد يكونون مشركين تارة ، أو فاسقين ضلالًا تارة أخرىٰ.

وتحقيق مناطات هذه الأحوال وتنزيلها علىٰ المعين إنما يرجع إلىٰ تحقق وصف الجهل المعتبر في الشخص المعيَّن.

وفي بيان هذا الحكم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -:

«وهذا الشرك إذا قامت علىٰ الإنسان الحجة فيه ولم ينته، وجب قتله كقتل أمثاله من المشركين، ولم يدفن في مقابر المسلمين، ولم يُصلَّ عليه.

وأما إذا كان جاهلًا لم يبلغه العلم، ولم يعرف حقيقة الشرك الذي قاتل عليه النبي ﷺ المشركين: فإنه لا يُحْكَم بكفره، ولا سيما وقد كثر هذا الشرك في المنتسبين إلىٰ الإسلام، ومن اعتقد مثل هذا قربة وطاعة فإنه ضالٌّ باتفاق المسلمين، وهو بعد قيام الحجة كافر»[1].اهـ.

ويقول الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- :

«وهنا مسألة: لو كان الجهل في أمر يكون رِدَّةً وكفرًا مع العلم، مثل أن يكون عامي قد عاش بين قوم يدعون الأموات، ولم يبيِّن لهم أحد أن هذا من الشرك، لكنه يدين بالاسلام، ويقول أنه مسلم، فهل يُعذر بدعاءه غير الله؟

الجواب: نَعَم، يُعذر؛ لأن هذا الرجل قد عاش علىٰ هذا الحال، ولم يُبيِن له

(١) «جامع المسائل» (٣/ ١٤٥)- جمع عزير شمس- وانظر - للفائدة-: «إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي» (ص٤٣-٥٢).

أحدٌ أن هذا شركٌ، وهو يعتقد أن هذا من الوسائل وليس من المقاصد، يعني: يعتقد أن هذا الميت وسيلة له الىٰ الله -عز وجل-، يقربه اليه، فنقول: لا يكفر؛ لأنه منتسب إلىٰ الإسلام[١].

وأصل هذا راجع إلىٰ أن الكفر والشرك حقائق شرعية لا يتحقق مقتضاها في المعيَّن إلا إذا استُوفِيَت الشروط وانتفت الموانع، فالشأن فيه كالشأن في أيّة حقيقة شرعية أخرىٰ.

فإذا ما صلىٰ العبد صلاة مستوفيةً للشروط والأركان والواجبات: فإنه حينئذٍ يسمىٰ مصليًا،وإذا ما صلىٰ العبد صلاة غير مستوفيةٍ للشروط والأركان، فإنه لا يُسمىٰ في الشرع مصليًا.

وكذلك: إذا فعل العبد محظورًا ما،فإنه لا ينطبق عليه الوصف الشرعي المتعلق بذلك المحظور إلا بتوفر شروطه وانتفاء موانعه، وهذا كمن جامع امرأة يظُنُّها زوجتَه، فبانت خلاف ذلك، فإنه حينئذ لا يسمىٰ في الشرع زانيًا، ولا يترتب في حقه أحكامه.

وكذلك: من شرب الخمر لعلمه أنها ليست محرمة، فهذا لا ينطبق عليه الاسم، كتسميته بالفاسق، ولا الحكم كالحد بالجلد[٢].

وحقيقة الكفر والشرك داخلة في هذا الباب، فمن فعل من أهل الإسلام ما هو شرك أكبر وهو يظن بسبب جهله المعتبر[٣] أن ما فعله لا يدخل في باب الشرك،فإنه

---

(١) «شرح منظومة أصول الفقة» (ص ٤٢).

(٢) «إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي» (ص٣٣).

(٣) وهذا قيد مهم في إعذار الجاهل، وعدم مؤاخذته، فليس كل جاهل معذورًا،فمناط الجهل المعتبر من عدمه هو ما كان متعلقًا بالإعراض،والتمكن.

والذي يدل عليه كلام المحققين من أهل العلم أن الجهلَ نوعان:

=

حينئذٍ لا يوصف بالشرك،ولا تنطبق عليه حقيقته الشرعية.

ومبنىٰ هذا -كلِّه-: علىٰ أساس اليقين بثبوت عقد الإسلام لهذا الجاهل ابتداءً.

وهذا اليقين لا يقوىٰ علىٰ منازعته ونقضه ذياك الشرك، وذلك لطروء المانع عليه وهو الجهل، الذي هو نوع من أنواع الخطأ الدّاخِلِ دخولًا أوليًّا في قوله ﷺ: «**إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرِهُوا عليه**»[1].

=

جهلٌ اختياري: وهو جهل الإعراض، كمن يُعرض بسمعه وقلبه عن سماع الهدىٰ، وهذا لا يُعذر بجهله.

وجهلٌ اضطراري: يكون معه قصدُ العلم ، وإرادةُ الهدىٰ، وهذا الجهلُ حاصلٌ بسبب العجزِ، وعدمِ التمكنِ من الوصولِ إلىٰ الحق، سواءٌ كان السببُ ضعفَ العلم وخفاءه، أو فشو البدع وظهورها.

وبعضُ أهل العلم يُضَيِّق الحكمَ في إعذار الجاهل فلا يُعذر المفرط أيضًا، وهذا غير سديد، فإن عامة الناس من الجُهّال إنما مَنشأُ جهلهم من جهة تفريطهم في طلب الحق ، والوصولِ إليه.

وقد عدَّ ابن القيم -رَحِمَهُ اللهُ- المُفَرِّط في طلب الحق - ممن خالف في بعض الأصول- من جملة المسلمين، فها هو يقول:

«فأما أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوِهم فهؤلاء أقسام ...

القسم الثاني : المتمكن من السؤال وطلب الهداية ولكن يترك ذلك اشتغالًا بدنياه، ورياسته، ولذته ومعاشه، وغير ذلك، فهذا مُفَرِّط مستحق للوعيد آثمٌ بترك ما وجب عليه من تقوىٰ الله بحسب استطاعته، فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات».اهـ.

وانظر: «مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة - دراسة نظرية تأصيلية- ضمن مجلة الدراسات العقدية» (٣/ ١٨-١٩). وقارن بـ«إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي» (ص٥٣- وما بعدها).

(١) انظر: «إرواء الغليل» (١/ ١٢٣).

تحقيق المناط في كون الدعاء أشرف العبادات[(١)] وأكرم شيء عند رب الأرض والسماوات

دعاء رب الأرض والسماء من أجل العبادات، وأشرف الطاعات، بل هو لُبُّ العبادة وروحها، وهو ملجأ الصالحين، وأنيس المتقين، وسلوة العابدين لما يتضمنه من الذلة والافتقار والالتجاء إلىٰ مَنْ بيدِه الأمرُ كُلُّهُ - جلّ في عالي سماه- .

يقول الإمام الخطابي -رَحِمَهُ اللَّهُ- : «ومعنىٰ الدعاء : استدعاء العبد من ربه العناية واستمداده إياه المعونة، وحقيقته : إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنىٰ الثناء علىٰ الله -عز وجل-، وإضافة الجود والكرم إليه»[(٢)].

وما كان مدار فعله أو قوله من العبد متضمنًا للافتقار، أو مستلزمًا للذلة والانكسار، أو مشتملًا علىٰ طلب نفع غيبي؛ كان عبادة ولا ريب.

وعبادة الله وحده لا شريك له، وإفراده بالدعاء والطلب - فيما لا يقدر عليه إلا هو-، دلّت علىٰ وجوبها الكتب السماوية، واتفقت عليها الدعوة الرسالية، وهي أصل الدين وقاعدته، فلا يجوز أن يعتريها نسخ ولا تخصيص.

قال الله -جل وعلا-: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ

(١) يقول الإمام الشوكاني : «إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه هو نوع مِن أنواع العبادة». «الدر النضيد» (ص٦٩).

(٢) «شأن الدعاء» (ص٦٢).

لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾[الأحقاف: ٤-٦].

وظاهرٌ من دلالة السياق أن قوله -تعالىٰ-: ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أريد به الدعاء المذكور قبلُ.

ويقول -سبحانه-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[الأنعام: ٤٠]؟

أي: قل يا محمد للمشركين: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب، التي يُضطَرُّ إلىٰ دفعها، هل تدعون آلهتكم وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين.

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤١] فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونها لعلمكم أنها لا تملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نُشورًا، وتُخلصون لله الدعاء، لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم في الرخاء تشركون به، وتجعلون له شركاء؟ هل دلَّكم علىٰ ذلك عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ أم تفترون علىٰ الله الكذب[(١)]؟

يقول ابن جرير -رَحِمَهُ اللَّهُ- كما في «تفسيره»- : «يقول -تعالىٰ ذِكرُه-، مكذِّبًا

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص٣٣١).

لهؤلاء العادلين به[(١)] الأوثان: ما أنتم، أيها المشركون بالله الآلهةَ والأندادَ، ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾[الأنعام:٤٠]، بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدة الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم، بل تدعون هناك ربّكم الذي خلقكم، وبه تستغيثون، وإليه تفزعون، دون كل شيء غيره ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:٤١] يقول: فيفرِّج عنكم عند استغاثتكم به وتضرّعكم إليه، عظيم البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم؛ لأنه القادر علىٰ كل شيء، ومالك كل شيء[(٢)].

فالآية صريحة في أن المراد بالدعاء السؤال[(٣)].

ويقول -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[الروم:٣٣].

يقول ابن جرير -رَحِمَهُ اللَّهُ- : «يقول -تعالىٰ ذِكرُه-: وإذا مسّ هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر ضرّ، فأصابتهم شدة وجدوب وقحوط ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾ أي: أخلصوا لربهم التوحيد، وأفردوه بالدعاء والتضرّع إليه، واستغاثوا به: ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: تائبين إليه من شركهم وكفرهم»[(٤)]. اهـ.

ويقول -تعالىٰ-: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ

---

(١) أي: المُسوِّين به غيره.

(٢) «تفسير ابن جرير الطبري» (٧/ ٣٢٣) .

(٣) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٣/ ٧٦٦) .

(٤) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢١/ ٥١).

بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[يونس:٢٢].

يقول ابن جرير الطبري -رَحِمَهُ اللهُ-: «﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يقول: أخلصوا له الدعاء هنالك دون أوثانهم وآلهتهم، وكان مفزعهم حينئذٍ دونها»[١].

ثم أخرج عن قتادة قال: «إذا مسهم الضر في البحر أخلصوا له الدعاء»[٢].

وأخرج عن ابن أبي زيد قال: «هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون فإذا كان الضر لم يدعوا إلا الله، فإذا نجاهم إذا هم يشركون»[٣].

ويقول -سبحانه-: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[لقمان:٣٢].

يقول ابن جرير الطبري: «يقول -تعالىٰ ذِكرُه-: وإذا غشي هؤلاء موج كالظلل فخافوا الغرق فزعوا إلىٰ الله بالدعاء مخلصين له الطاعة لا يشركون به هنالك شيئًا، ولا يدعون معه أحدًا سواه، ولا يستغيثون بغيره»[٤].

ثم إن النصوص الكثيرة الآمرة بإفراد الله -تعالىٰ- بالدعاء والناهية عن دعاء غيره دليلٌ علىٰ أن الدعاء عبادة وأن صرفه لغير الله شرك، وهذا المعنىٰ جاء مُطَّرِدًا في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ لم يتخلف عن ذلك لفظ من ألفاظها[٥].

(١) «تفسير ابن جرير الطبري» (١١/ ١١٧).
(٢) «تفسير ابن جرير الطبري» (١١/ ١١٧).
(٣) «تفسير ابن جرير الطبري» (١١/ ١١٧).
(٤) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢١/ ٩٨).
(٥) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٣٧١-٣٧٢).

ومن ذلك قوله -جل وعلا-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

و(إن) -في مثل هذا- تفيد التعليل، وذلك يقتضي أن الدعاء عبادة، وكأنه قال: ادعوني فإن الدعاء عبادة، ومن استكبر عن عبادتي فسيدخل جهنم[١].

يوضح هذا ما رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٤١) - وغيره[٢] -من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**»[٣]، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

ومنه قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥].

وقوله -تعالىٰ-: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:٦٥].

---

(١) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٣/ ٧٦٥).

(٢) ورواه الترمذي (٥/ ٢١١)، ابن ماجه (٢/ ١٢٥٨)، والحاكم (١/ ٤٩١) وهو في «الصحيحة» تحت الحديث رقم (٢٦٥٤).

(٣) قال شيخنا: وأما لفظ (مخ العبادة) فلا يصح.

قلت: قد رواه الترمذي -وغيرُه- من حديث أنس برقم(٣٣٧١) في أبواب الدعوات: باب ما جاء في فضل الدعاء، وقال عَقِبَه: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ لَهِيعَةَ، وقال العلامة الالباني: «ضعيف»، كما في «المشكاة» (٢/ ٦٩٣) برقم (٢٢٣١).

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

وقوله -سبحانه-: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[يونس:١٠٦].

ولقد أمر الله -تعالىٰ- نبيه ﷺ بأن يقصر سؤاله ورغبته عليه وحده وذلك في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾[الشَّرح:٨] .

يقول الإمام الطبري في «تفسيره»: وقوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ يقول -تعالىٰ ذِكرُه-: وإلىٰ ربك يا محمد فاجعل رغبتك، دون من سواه من خلقه، إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلىٰ الآلهة والأنداد[١].

ومن حديث ابن عباس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: أفضل العبادة الدعاء وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠] [٢].

وروىٰ البخاري في «صحيحه» من حديث ابن مسعود-رضي الله عنه- قال النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً وَقُلْتُ أُخْرَىٰ قال النَّبِيُّ ﷺ : «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا**

(١) «تفسير ابن جرير الطبري» (٣٠/ ٢٣٧).

(٢) «رواه الحاكم في المستدرك» (١/ ٤٩٠-٤٩١)، وصححه ووافقه الذهبي وهو في «الصحيحة» برقم (١٥٧٩).

دَخَلَ النَّارَ وَقُلْتُ أَنَا : مَنْ مَاتَ وَهُوَ لا يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[(١)] .

ودعاء الله وحده والاستغاثة به دون من سواه هي طريقة الأنبياء والمرسلين، فلا يُعرف عن أحد منهم التجاؤه إلىٰ قبر نبي قبله يسأله أو يستغيث به بِحُجَّة طلب القربىٰ والشفاعة،بل كانوا- عليهم الصلاة والسلام- ذوي التجاء إلىٰ من بيده الامر كله-جل وعلا- لا إلىٰ نبي مرسل ولا إلىٰ ملك مقرب، وأدلة هذا في القرآن كثيرة لا تحصىٰ[(٢)] .

والحاصلُ أن العبادة أنواعٌ وصور، وأعظم عبادة تتجلىٰ فيها حاجة الإنسان وعبوديته لرب الأرض والسماء- سبحانه- هو الدعاء، ولذلك قال في الحديث : «**الدعاء هو العبادة**» ثم تلا قوله -تعالىٰ-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]- كما تقدم- لِيُبَيِّنَ أن الدعاء هو لُبّ العبادة وروحها.

وفي هذا يقول القاضي عياض -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «أي: هو العبادة الحقيقة -أي: الدعاء- التي تستأهل أنْ تسمىٰ عبادة، لدلالته علىٰ الإقبال علىٰ الله، والإعراض عما سواه»[(٣)] .اهـ.

---

(١) البخاري- كتاب التفسير -باب (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا). برقم (٤٤٩٧) (٨/ ٢٢١فتح)

(٢) انظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٣٧٦).

(٣) انظر: «البيان والإشهار لكشف زيغ الملحد الحاج مختار» (ص٣٤٢) لفوزان السابق -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- .

وفي تفصيل المعنىٰ نفسه- أثرًا ونظرًا- يقول العلامة محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالىٰ- :

فذكر المؤلف[١] -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- آيات من كتاب الله -عز وجل- في فضل الدعاء والأمر به، ثم ذكر الأحاديث، ومنها حديث النعمان بن بشير، أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**»، يعني: الدعاء من العبادة، ويشهد لهذا قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] لم يقل: يستكبرون عن دعائي، قال: ﴿عَنْ عِبَادَتِى﴾ فدلَّ هذا علىٰ أن الدعاء هو العبادة.

ووجه ذلك من النظر أن الإنسان إذا دعا ربه فقد اعترف لله -عز وجل- بالكمال وإجابة الدعاء، وأنه علىٰ كل شيء قدير وأن العطاء أحب إليه من المنع، ثم إنه لم يلجأ إلىٰ غيره لم يَدْعُ غير الله، لا مَلكًا، ولا نَبِيًّا، ولا وَلِيًّا، ولا قريبًا، ولا بعيدًا، وهذا هو حقيقة العبادة، وبذلك تعرف أنك إذا دعوت الله أُثِبْتَ علىٰ هذا الدعاء، سواء استُجيب لك، أم لا؛ لأنك تعبدت لله -عز وجل-، وعبدت الله، فإذا قلت: يا رب! اغفر لي يا رب! ارحمني يا رب! ارزقني يا رب! اهدني، فهذه عبادة تقربك إلىٰ الله -عز وجل-، ويَكتب الله لك بها ثوابًا عنده يوم القيامة، والله الموفق[٢].اهـ.

ويقول القاضي البيضاوي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : «لما حكم بأنَّ الدَّعاء هو العبادة الحقيقيَّة

(١) يعني: الإمام النووي- رحمه الله تعالىٰ-.

(٢) «شرح رياض الصالحين» (٦/ ١٣).

التي تستأهل أن تسمَّىٰ عبادة، من حيث إنه يدُل علىٰ أنَّ فاعله مقبل بوجهه إلىٰ الله -تعالىٰ-، مُعرِض عمَّن سِواه، لا يرجُو ولا يخاف إلاَّ منه؛ استدل عليه بالآية، فإنها تدُل علىٰ أنه أمر مأمُور به إذا أتىٰ به المكلف قُبل منه لا محالة وترتب عليه المقصود، ترتب الجزاء علىٰ الشرط، والمسبَّب علىٰ السبب، وما كان كذلك كان أتم العبادات وأكملها»[1].اهـ.

وقريبٌ منه ما قاله العلامة محمد البشير الإبراهيمي في «مجالس التذكير» حيث قال -رَحِمَهُ اللهُ-: «وحديث النعمان بن بشير المرفوع: «**الدُّعاءُ هوَ العِبَادةُ**» رواه أحمد وأصحاب «السنن»، والعبادة لا تكون إلا لله، لم يدعه، لا وحده ولا مع الله؛ لأن الدعاء لا يكون إلا لله.

وهذا بخلاف ما يفعله الجُهّال والضُّلّال من طلبهم من المخلوقين من الأحياء والأموات، أن يعطوهم مطالبهم، ويكشفوا عنهم بلاياهم، ...وهذا جائز أن يسأل المؤمن من أخيه في حال حياته أن يدعو الله -تعالىٰ- له، ومن هذا حديث البخاري في سؤال أم أنس بن مالك من النبي- صلىٰ الله عليه وآله وسلم- أن يدعو لأنس خادمه فدعا له»[2].اهـ.

ويقول الفقيه ابن الملك الرومي-رَحِمَهُ اللهُ-:«قال رسول الله: «**الدعاء هو العبادة**»؛ لأن المقصود الأعظم من العبادة : الإقبال عليه -تعالىٰ- والإعراض عما سواه، بحيث لا يُرجىٰ ولا يُخاف إلا إياه والدعاء لا ينفك عن هذه المعاني، فجَعَله – عليه

---

(١) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (٢/ ٩) للقاضي البيضاوي- رحمه الله- .

(٢) «مجالس التذكير» (١/ ٤٠) .

الصلاة والسلام- نفس العبادة»[(١)] .اهـ.

فكان الدعاء هو العبادة لاشتماله علىٰ حقيقة العبودية وروحها ولُبُّها.

يقول أبو المفاخر علي بن عبيد الله المصري -رَحِمَهُ اللهُ-: «وجاز أن تكون العبادة بمعنىٰ العبودية، وكأن العبد مأخوذ من العبادة؛ لأنها الطاعة والخضوع والتذلل، والعبد فيه ذلٌّ، فكأنه قال: الدعاء هو العبودية؛ لأن العبد إذا سأل ربه في الدعاء وشكىٰ إليه ضُرّه ورفع إليه حاجته آذَنَ أن ربه مرغوب إليه في الحوائج، ذو قدرة علىٰ ما يشاء، وأنه عبد ضعيف لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، واعترف بالفقر والذل لمن يدعوه»[(٢)] .اهـ.

والحاصل أن قوله -تعالىٰ- في الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] صريح في أن الدعاء عبادة للمدعو، لتضمنه واشتماله علىٰ تذلل وخضوع قلبي يطلب به نفع غيبي.

ففي الآية أمر الله بدعائه، ثم تَوَعَّدَ من استكبر عن عبادته بالعذاب الأليم، فدل هذا علىٰ ان الدعاء من جملة العبادة ونوع من أنواعها، بل هو أجلّ أنواعها، وهذا سبق التنبيه عليه وذكره مرارًا، واللهُ الهادي.

---

(١) «شرح مصابيح السنة» (٣/ ٧٣) لابن الملك الرومي، وانظر: «المفاتيح شرح المصابيح» (٣/ ١٢٣) للعلامة مظهر الدين الزيداني.

(٢) «شرح المصابيح» (٣/ ٣٢٧) لأبي المفاخر علي بن عبيد الله المصري.

الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، فالاستغاثة عبادة، وهي أخَصُّ الدعاء وأجلى أحوال الالتجاء
- تدليلٌ وتعليلٌ -

وهذا الأصل سبقت الإشارة إلىٰ معانيه في أثناء البحث، ولكن نفرده لأهميته فنقول:

دل برهان الشرع علىٰ أن الاستغاثة بغير الله - فيما لا يقدر عليه إلا الله- شرك أكبر، ونص العلماء علىٰ أن مناط الشرك في الاستغاثة بغير الله هو من وجوه ثلاثة :

أولها: أن فيها اعتقاد المستغيث أن المستغاث به يعلم الغيب وإلا لما دعاه ألبتة.

ثانيها: أن فيها اعتقاد المستغيث أن المستغاث به يسمع صوته ونداءه وإلا لما هتف باسمه.

ثالثها: أن فيها اعتقاد المستغيث أن المستغاث به يقدر علىٰ قضاء حاجته من دفع ضر، أو كشف كربة، وإلا لما ناداه عند الكربات وهجوم الملمات(١).

والدعاء يلازمه التذلُّل، والرَّغَبُ، والرَّهَبُ، وأيضًا يلازمه-ولا بُدّ- الاعتقاد في المدعوِّ، مع تعظيم يُتدين به، لذلك فهو عبادة(٢)، ولمن يُجَوِّزُ الاستغاثة بالأموات

(١) انظر: «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (٢/ ١١٦٣) لشمس الدين الأفغاني.

(٢) انظر: «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٣/ ٧٣٣-٧٣٤)، وسيأتيك الكلام عن انواع الدعاء المشروع منه والممنوع.

نصيب وافر من تلك التعلُّقات والتألُّهات.

قال الله- جل وعلا-: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[يونس:١٠٦-١٠٧].

وهذا خطاب للرسول ﷺ؛ أي: لا تدْعُ يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئًا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، فإن فعلت فدعوتها من دون الله، فإنك إذًا من الظالمين؛ أي: المشركين بالله، والرسول ﷺ معصوم من الشرك وسائر كبائر الذنوب، وإنما هذا تعليم للأمة من بعده،وتحذير لها من مداخل الشرك وذرائعه[1].

وقال -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[العنكبوت:١٧-١٨].

ولا شك أن كلّ داعٍ متذللٍ هو عابدٌ لمن يدعوه، كما أن كل داعٍ لولي أو نبي أو صالح هو داعٍ لمن هو (من دون الله)، فدلالة السياق في الآية قاضية بدخول سائر خلق الله في معنىٰ النهي عن دعائهم، والذم لمن دعاهم.

وقال-جل شأنه-:﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ .وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾[الأحقاف:٥-٦].

(١) «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص ٤٠) - بتصرف يسير- .

والمستغيث بالمخلوق إنما ينادي ويدعو غير الله، كأن يستغيث قائلًا: يا رسول الله أنقذني من هذه الشدة، أو: يا عبد القادر، أو: يا دسوقي، أو : يا رفاعي، أو: يا بدوي. . . إلخ.

ولا ريب أن المستغيث بغير الله داخل في عداد الظالمين المشركين.

وكيف يستغيث العاقل المؤمن بغير الله، وهو يقرأ هذه الآيات أو يسمعها(١)؟!

وقال -تعالىٰ-: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل:٦٢].

وفي هذه الآية بين الله أن المشركين من العرب ونحوهم، كانوا يعلمون أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلّا الله وحده، فذكر ذلك محتجًا عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه، ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ بالاستفهام الإنكاري، أي: ليس إلهٌ مع الله يجيب المضطر ويكشف السوء(٢). ففيها دلالة صريحة مدوية علىٰ أن دعاء غيرِ الله شركٌ وتأليه للمدعو، حيث أنكر -سبحانه- علىٰ من يدعو غيره في كشف الضر، ثم أتبعها مخبرًا: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

وإذا قلنا بأن الاستغاثة عبادة؛ فما الدليل من الكتاب والسنة علىٰ ذلك؟ فالأصل في العبادات التوقيف، ولا بد لها من دليل من الكتاب أو من السنة، فكل عبادة ثبتت بالشرع أنها عبادة فصرفها لغير الله شرك.

---

(١) «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص٤١).

(٢) «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص٤٢).

والجواب :

أما الدليل علىٰ أن الاستغاثة عبادة لله -تعالىٰ-، فهو مجموع ما ذكرناه من النصوص الصريحة الكثيرة الدالة علىٰ أن الدعاء عبادة.

وكذلك أيضًا ما قاله الله -تعالىٰ- مخبرًا به عن عباده: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩]؛ أي: لأنكم تضرعتم وتذللتم واستغثتم بربكم، فقد أتيتم بما عليكم من التذلل، والتعبد الذي هو روح العبادة ولُبها، حينئذٍ جاء الجواب بقوله -سبحانه-: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ مِنّةً وكرمًا منه -جل في علاه-.

أما من السنة: ففي «الصحيحين» من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال - وهو يخطب بالناس-: «**اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا**»[(١)].

ومن حديث عبادة ابن الصامت - قال : قال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله -عز و جل-**»[(٢)].

---

(١) «البخاري»، كتاب الاستسقاء - باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، برقم (١٠١٤) (٢/ ٦٥٤ - «فتح الباري»). و«مسلم»، كتاب صلاة الاستسقاء - باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٢٠٧٥) (٦/ ٤٣١ - «شرح النووي»).

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٩)، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق.

قلت: وسياق أحمد (٥/ ٣١٧): قال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يقام لي إنما يقام لله**». اهـ.

ولقائل أن يقول : هذا حديث قد تكلم فيه الحفاظ، إذ في سنده ابن لهيعة، وهو مُتَكَلَّمٌ فيه، فالاستشهاد به ساقط مردود.

وجوابنا : إن هذا الخبر -علىٰ فرض التسليم بضعفه- إنما نذكره للاعتضاد به مع غيره، ولسنا نذكره للاعتماد عليه مجردًا عن غيره من الدلائل والأصول، حيث إن معناه موافق لمعاني ما جاء في الكتاب والسنة، فهو استدلالٌ اعتضاديٌّ، وليس ابتدائيًّا استشهاديًّا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- : «هذا الخبر لم يذكر للاعتماد عليه، بل ذكر في ضمن غيره، ليتبيّن أن معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب والسنة، كما أنه إذا ذكر حُكم بدليل معلوم، ذكر ما يوافقه من الآثار، والمراسيل، وأقوال العلماء، وغير ذلك؛ لما في ذلك من الاعتضاد والمعاونة، لا لأن الواحد من ذلك يُعْتَمَدُ عليه في حكم شرعي.

ولهذا كان العلماء متفقين علىٰ جواز الاعتضاد والترجيح، بما لا يصلح أن يكون هو العمدة من الأخبار التي تُكُلِّمَ في بعض رواتها لسوء حفظ، أو نحو ذلك، وبآثار الصحابة والتابعين، بل بأقوال المشايخ والإسرائيليات والمنامات مما يصلح للاعتضاد، فما يصلح للاعتضاد نوع، وما يصلح للاعتماد نوع، وهذا الخبر من النوع الأول، فإنه رواه الطبراني في «معجمه» من حديث ابن لهيعة.

وقد قال أحمد : قد كتبت حديث الرجل لأعتبر وأستشهد به، مثل حديث ابن لهيعة فإن عبد الله بن لهيعة -قاضي مصر- كان من أهل العلم والدين، باتفاق العلماء، ولم يكن ممن يكذب باتفاقهم، ولكن قيل: إن كتبه احترقت، فوقع في بعض حديثة غلط، ولهذا فرّقوا بين من حدث عنه قديما وبين من حدث عنه حديثًا

وأهل «السُّنن» يروون له[١].

والحاصل، أنه إن ثبت أن الاستغاثة عبادةٌ[٢] فصرفُها لله توحيد، وصرفُها لغير الله شرك وتنديد.

□ مسألة في معنىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ - ترجيحًا وتوجيهًا -:

وقد قيل بأن المراد بـ(ادعوني) في قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ أي: (اعبدوني)، وهذا هو أحد القولين في معنىٰ الآية، وما كان في معناها من الآيات المشتملة علىٰ اسم الدعاء في سياق الأمر به، أو الإخبار عن حال المشركين معه، بل كاد المفسرون المتأخرون يطبقون عليه في هذه الآية، وفي سائر آيات الباب .

وقيل : بل لفظ الدعاء في الآية علىٰ ظاهره، وهو النداء والسؤال والطلب.

وهذا الأخير هو ما رجحه ذهبي عصره العلاّمة الألمعي عبد الرحمن المعلمي اليماني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وجماعة، وأيَّدَ وجه الرجحان من وجهين :

الأول: هو أن الأصل في النصوص حملها علىٰ ظاهرها؛ إذ لا يصار إلىٰ ما يخالف الظاهر من المعاني والحقائق إلا بالقرائن الصارفة، والمُرَجِّحات المعتبرة.

وفي هذا المعنىٰ يقول اليماني- بعد كلام-: فإن قلت: المفسرون لم يقولوا إن الدعاء في الآيات جميعها بمعنىٰ النداء بل قالوا في أكثرها إنه بمعنىٰ العبادة!؟

فالجواب: أن الأصل الحقيقة، ولا يجوز العدول عنها إلا لصارف يصرف

(١) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص١٥٣-١٥٤).

(٢) قال شيخنا : وهو ثابت لا ريب.

عنها ولا صارف هنا، بل مقابلة الدعاء بالاستجابة مؤيد لها، وإخراج الكلام عن ظاهره بغير صارف تحريف للكلم عن مواضعه وقرمطة لو فُتح بابها لعاد الدين لعبة. اهـ[(١)].

وفي المعنىٰ نفسه يقول القسطلاني-رَحِمَهُ اللَّهُ- في «شرحه» علىٰ «البخاري» ما نصه:

«وقيل: المراد بقوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ الأمر بالعبادة بدليل قوله بعد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: صاغرين ذليلين، والدعاء بمعنىٰ العبادة كثير في القرآن كقوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾[النساء:١١٧] وأجيب: بأن هذا ترك للظاهر فلا يصار إليه إلا بدليل.

وقال العلامة تقي الدين السبكي: «والأولىٰ حمل الدعاء في الآية علىٰ ظاهره، وأما قوله بعد ذلك: ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾ فوجه الربط أن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة؛ فقد استكبر عن الدعاء، وعلىٰ هذا فالوعيد إنما هو في حق من ترك الدعاء استكبارًا ومن فعل ذلك كفر».اهـ[(٢)].

الثاني: أنه لا يُعرف في اللغة تفسير الدعاء بالعبادة.

---

(١) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٣/ ٧٦٢) لليماني، ضمن مجموعة آثاره-رحمه الله تعالىٰ-.

(٢) «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» (٩/ ١٧٣)، كتاب الدعوات - باب لكل نبي دعوة مستجابة.

يقول العلامة اليماني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : «ونُقِلَ عن بعض السلف تفسيرُ الدعاء في بعض ذلك بالعبادة، وكاد المفسرون المتأخِّرون يُطْبِقون عليه، وفيه نظر؛ فإنه لا يُعرف في اللغة؛ ولهذا لم يذكره كثيرٌ من أهل اللغة حتىٰ الذين يتعرضون للمجاز كصاحب «القاموس»، وصاحب «الأساس»، وصاحب «المصباح»، بل لم يذكره الراغب، مع أن كتابه موضوع لغريب القرآن، ومَن ذَكَرَهُ كصاحب «اللسان» فإنَّما ذَكَرَهُ تفسيرًا لبعض الكلمات القرآنية.

وهذا من أشد العيوب في كتب اللغة يعمدون إلىٰ بعض الكلمات التي جاءت في القرآن، وفسرها بعض السلف بشيء، أو فهموه هم من القرآن، فيثبتون ذلك لُغَةً، مع أن السلف كانوا يتسامحون في التعبير؛ ثقةً بفهم السامع، فربما فسَّروا الكلمة بلازمها، أو ببعض ما يدخل تحت عمومها»[1].اهـ.

ويقول -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : «ولو سَلَّمنا أن الدعاء في الآيات مجاز عن العبادة لكان أقرب ما تكون العلاقة هي الخصوص والعموم، وعليه فهو حجة لنا أيضًا؛ لأن الأخص إنما يطلق علىٰ الأعم إذا كان الأخص هو الأهم أو من الأهم، كما نصّ عليه أهل المعاني، وعليه فدعاء المشركين آلهتهم أعظم عبادتهم لها أو من أعظمها، فثبت بذلك كونه عبادة وزيادة.

وعندي أنّ مَن فسّر الدعاء بالعبادة؛ إنما حمله علىٰ ذلك تَوهُّمه أن المراد بالآلهة في الآيات الأصنام، ورأىٰ أن المشركين لا يسألون منها شيئًا، فهذا الذي اضطره إلىٰ التأويل.

---

(١) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٣/ ٧٥٥-٧٥٦) ضمن مجموعة آثاره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- .

مع أن قوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٤] ظاهرٌ في أنهم كانوا يدعون الأصنام، فقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ صريحٌ في أنّ المراد الدعاء بالكلام، وقوله: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ظاهرٌ في أنه ليس المراد بالدعاء مجرد النداء، بل المراد به السؤال طلبًا للنفع واستدفاعًا للضر، حيث إن القوم كانوا يسألون الأصنام علىٰ نية السؤال من الروحانيين أو الكواكب، حيث يعتقد المشركون أن تلك الأصنام شخوص وصور لها، تقربهم إلىٰ اولئك الرُّوحانيين من الملائكة ونحوهم، أو إلىٰ تلك الكواكب التي يعتقدون فيها التصرف والتدبير للعالم السُّفْلي[(١)].

وقد فَسَّرَ ابن القيم -رَحِمَهُ اللهُ- الدعاء في قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥] بدعاء المسألة، إذ هو المعنىٰ الظاهر من السياق، ورجَّح أن استعمال الدعاء في العبادة والمسألة من استعمال اللفظ في حقيقته الواحدة، فليس هو من المشترك[(٢)]، ولا المتواطئ[(٣)]، ولا

---

(١) انظر: «رفع الاشتباه» (٣/ ٧٦٣-٧٦٤) و (٣/ ٦٢٠).

(٢) **والمُشترَك**: هو اللفظ الواحد الذي يُطلَق علىٰ أشياء مُختلِفَة؛ كالعين؛ فإنَّها تُطلَق علىٰ آلة البصر، وعين الماء، والجاسوس، وذات الشيء. انظر: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/ ١٠٧١-١٠٧٤).

(٣) **المُتَواطِئ**: هو الكُلّي الذي استوىٰ معناه في أفراده كـ«الإنسان» فإنه متساوي المعنىٰ في أفراده =

المجاز[١].

والمقصود من إيراد ما سبق هو بطلانُ قولِ المدعي بأن المراد بالدعاء في سائر الآيات هو العبادة، وسَلْبُ معنىٰ الدعاء عن مدلول اللفظ، فإن هذا مما يعلم بُطْلانُه، والله المستعان .



=

من زيد وعمرو، وغيرهما، لكن هذا المعنىٰ الكلي الذي يجمعهم لا يعني أن حقيقة زيد هي نفسها حقيقة عمرو، بل كلٌّ له حقيقته الخاصة، وإن كان يجمعهم معنىٰ الإنسان.

وسُمِّي متواطئًا من التوافق؛ أي: لتوافق أفراد معناه فيه.

انظُر: «البدر الطالع في حلِّ جمع الجوامع» (١/ ٢٢٤) لجلال الدين المحلي، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/ ١٠٧٢) لعبد الرحمن المحمود.

(١) **المجاز** - عند القائلين به-؛ هُوَ: اللَّفْظُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ أَوَّلًا بِوَضْعٍ ثَانٍ لِعَلَاقَةٍ. انظُر: «حاشية العطار علىٰ شرح الجلال المحلي علىٰ جمع الجوامع» (١/ ٤٢٢ - مبحث المجاز)، و«التعريفات» (ص١٤٩-١٥٠) للجرجاني، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٩) لابن القيم -رحم الله الجميع-، والحاصل أن إطلاق الدُّعاء علىٰ العبادة والمسألة ليس هو مِن قَبِيل الْمُشتَرَك، ولا المتواطئ، ولا المجاز، بل لكلٍّ حقيقتُه وحَدُّهُ.

صد قول المعتدي بأن الدعاء ليس شركًا إلا إذا تضمن اعتقادًا في المدعو - ردًّا ونقضًا -

وهذه مسألة يتخبط فيها أهل البدع، حيث يقولون : إن الدعاء ليس عبادة في نفسه، وليس صرفه لغير الله شركًا إلا إذا تضمن اعتقادًا في المدعو، كأن يعتقد فيه صفة من صفات الربوبية، ويقولون - بناءً علىٰ هذا الأصل الفاسد- بجواز الدعاء والاستغاثة بالأولياء والصالحين، بل وحتىٰ الحَجَر إذا لم يعتقد فيه صفة من صفات الربوبية! أو لم يعتقد فيه النفع استقلالًا!

وهذا -لعمر الله!- هو الشرك بعينه، وهو عين مقالة عُبّاد الأصنام من المشركين الأولين الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزُّمَر:٣] وغاية الفرق بينهم وبين مشركي زماننا أن صنم أولئك من حجارة أو خشب، وصنم هؤلاء من سلالة من طين.

وهذا يذكرنا بما قاله الخميني الرافضي- مُقرِّرًا عقيدة المشركين- وذلك في كتابه «كشف الأسرار» (ص٤٩): حيث قال: «وبعد أن تَبيَّن أنَّ الشرك هو طلب الشيء من غير رب العالمين علىٰ أساس كونه إلهًا فإنَّ ما دون ذلك ليس بالشرك، ولا فرق في ذلك بين حيٍّ وميِّت، فطلب الحاجة من الحجر أو الصخر ليس شركًا». اهـ.

فسبحان الله! ما أقبح هذا الاعتقاد، فالعابد عند أولئك لا يكون عابدًا حتىٰ

يعتقد فيمن عبده أنَّ له شيئًا من صفات الربوبية، وأمَّا من دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، أو استعان بغير الله، أو رجا غير الله، أو خاف غير الله من قبر، أو شجر، أو حجر؛ فإنَّ ذلك لا يكون شركًا ما لم يعتقد العابد فيها أنَّ لها شيئًا من صفات الربوبية، وعلىٰ هذا فقول النبي ﷺ: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النَّار**»(١) ينقصه هذا القيد: «وهو: أن يعتقد في المدعو شيئًا من صفات الربوبية»(٢)!!

ثم هل أهل العلم من الصحابة والتابعين وأتباعهم لم يفطنوا لهذا القيد ولا عرفوه؟!

فإما أنكم جئتم شيئًا إدًّا -وهذا الأليق بكم- أو أنكم فقتم أصحاب محمد ﷺ - وحاشاهم- فهمًا وعلمًا!! فسبحان الله هدىٰ من شاء إلىٰ الحق بفضله، وخذل من شاء من الخلق بعدله، له الحكمة البالغة(٣).

ثم إنَّ نصوص القرآن الكريم المشتملة علىٰ الدعوة إلىٰ إخلاص الدين لله، وإفراده وحده بجميع أنواع العبادة كثيرة جدًّا، ومن ذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

يقول ابن كثير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : «يذكر -تعالىٰ- حال المشركين به في الدنيا، وما لهم

---

(١) «البخاري»، كتاب التفسير - باب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، برقم (٤٤٩٧) (٨/ ٢٢١ - «فتح الباري»).

(٢) قال شيخنا : وهذا عين الباطل.

(٣) انظر: « القول السديد في الرد علىٰ من أنكر التوحيد» (ص٧١-٧٢).

في الدار الآخرة، حيث جعلوا أندادًا؛ أي: أمثالًا ونظراء، يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضدَّ له ولا ندَّ له، ولا شريك معه.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، قال: قلت: يا رسول الله! أيّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»[١].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه»[٢].

فالعبادة بأنواعها حقٌّ خالصٌ لله لا يجوز صرفها لغيره، سواء اعتقد العابدُ في معبوده أنَّه ربٌّ أو لم يعتقد، وهذا أمرٌ معلومٌ من الدين بالضرورة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-: «فإنَّ المسلمين متفقون علىٰ ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أنَّ العبد لا يجوز أن يعبد، ولا يدعو، ولايستغيث، ولا يتوكل إلا علىٰ الله، وأنَّ من عبد مَلَكًا مُقرَّبًا، أو نبيًّا مرسلًا، أو دعاه، أو استغاث به، فهو مشرك، فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل: يا جبرائيل، أو: يا ميكائيل، أو: يا إبراهيم، أو: يا موسىٰ، أو: يا رسول الله اغفر لي، أو ارحمني، أو ارزقني، أو انصرني، أو أغثني، أو أجرني من عدوي، أو نحو ذلك، بل هذا كله من خصائص الإلهية وهذه مسألة شريفة معروفة قد بينها العلماء»[٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨٠ - ت.سلامة).

(٣) «الفتاوىٰ» (٣/ ٢٧٢).

أحكام الطلب،ومتى يكون دعاءً
أو
الدعاء أنواعه وصوره - تحريرًا وتقريرًا-

ولقائل أن يقول : قد علمنا أن السؤال من الله -تعالىٰ- والرغبة إليه يسمىٰ دعاء وأنه عبادة، وأن صرفه لغير الله شرك بالله -عز وجل-، ولكن ما صورة السؤال الذي إذا وقع لغير الله -تعالىٰ- كان دعاءً للمسؤول وشركًا بالله -تعالىٰ-؟

والجواب : إن الجُهَّال من أهل البدع يستدلون -مُلزِمين- بأن كل سؤال أو نداء أو طلب أو التماس من العبد لغيره يُسمّىٰ في اللغة دعاء، ويقولون: فكُلُّ طَلَبٍ أو نِداءٍ مِن العبد لغيرِه يكونُ شركًا علىٰ أصلكم.

وجواب هذه المغالطات يظهر من خلال معرفة وجوه السؤال وأنواعه، حيث إن ذلك علىٰ أقسام:

القسم الأول: ما هو من باب سؤال الإنسان حقًّا له عند آخر، كمن له دَيْنٌ علىٰ إنسان فيطلبه منه، ومنه، أمر النبي ﷺ الناسَ بالصلاة عليه[1]؛ فإن ذلك حقٌّ له عليهم[2]، وهذا النوع لا يسمىٰ استعانة ولا استغاثة ولا يلزم منه التذلل والخضوع،

---

(١) وفي الباب أحاديث منها حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**». رواه الإمام مسلم في (كتاب الصلاة - باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي علىٰ النبي ﷺ، ثم يسأل له الوسيلة) برقم (٨٤٧) (٤/ ٣٠٧ - «شرح النووي»).

(٢) كما أن في ذلك معنيين آخرين : **الأول** : تبليغهم حكمًا شرعيًّا، **والثاني** : إرشاد الناس إلىٰ ما

=

وهذا النوع لا محذور فيه، بل قد يكون مستحبًّا أو واجبًا.

القسم الثاني : ما جرت به العادة بالتسامح، وجرىٰ به العمل بين الناس تفضلًا وإحسانًا أو علىٰ نية المكافأة،كقول التلميذ لزميله : ناولني الكتاب،أو : أعطني قلمًا،وهذا النوع وإن سُمِّيَ استعانةً، أو دعاءً إلا أنه مما جرىٰ به التسامح بين الناس، حيث إن له معنًىٰ يعقل، وهو مما يندرج تحت قدرة العبد، كما أنه لا يلزم منه التذلل والخضوع، وإن كان فيه رائحة من ذلك -أحيانًا- .

القسم الثالث : سؤال الإنسان ما ليس له بحق، ولا جرت به العادة بالتسامح بين الناس، ومن ذلك قول من يجد الكفاية من الرزق لغني لا حق له عليه: أعطني مالًا، وهذا النوع يلزم منه التذلل والخضوع والانكسار -ولا بُدّ-، لذلك كان في السائل نوع عبودية لهذا المسؤول.

القسم الرابع : النداء وهو رفع الصوت بالدعاء، ويقابله المناجاة وهي المُسارَّةُ وخفض الصوت.

والنداء -باتفاق أهل اللغة- ليس قسيمًا للدعاء بل هو نوع منه[1].

والنداء للغير أنواع ثلاثة :

الأول : نداء عبادة؛ ومنه نداء الإنسان لغائب أو ميت، وهذا النوع شركٌ. فالدعاء بهذا التوصيف عبادة، لما فيه مِن تَذَلُّل واعتقاد في المدعو، فضلًا عن كونه مستلزمًا - أيضًا - للتعظيم الذي يُتَدَيَّنُ به، وهو ما يُطلب به نفع غيبي، وهو النفع

=

فيه نفعهم وصلاحهم.

(١) انظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (١٠/ ١٤٩)، و«المصباح المنير» (٢/ ٨٢٢) مادة (ندا)، و«تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص١٢٩).

الحاصل علىٰ خلاف العادة المبنيَّة علىٰ الحس والمشاهدة.

ومن هذا: قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ .

وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧].

الثاني: نداء الحي الحاضر؛ كأن ينادي الإنسانُ غيره طالبًا منه حاجة، أو سائلًا إياه أمرًا أو منبهًا له علىٰ شيء، وهذا النوع يلتحق بالأقسام الثلاثة الأولىٰ، فإلىٰ أيها كان أقرب شبهًا أُلحق به.

الثالث: نداء الغائب؛ علىٰ معنىٰ شهوده واستحضاره في القلب، واستذكاره.

ومن هذا قول المصلي في التشهد: «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»[1].

ومنه ما رُوِيَ عن ابن عمر أنه «لما خَدِرَتْ رِجْلُه قيل له: اذكُر أحب الناس إليك فقال: يا محمد»[2].

ومنه: قول الرَّجل في حديث عُثمان بن حُنيف -المشهور-: «...يا محمد**!** إنِّي توجَّهتُ بك إلىٰ ربِّي...»[3].

(١) «صحيح البخاري» كتاب الأذان - باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، و«مسلم» كتاب الصلاة - باب التشهد في الصلاة، رقم (٨٣١) عن عبد الله بن مسعود (٢/ ٤٠٢ -«فتح الباري»).

(٢) رواه البخاري في «الأدب» -المفرد- برقم (٩٦٤) **بإسناد ضعيف**؛ لذلك أورده العلامة الألباني في «ضعيف الأدب» برقم (١٤٨)، وفي «ضعيف الكلم الطيب» برقم (٢٣٥).

(٣) رواه جماعة منهم الإمام أحمد في «مُسنده» (٤/ ١٣٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب» برقم =

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-: «وقوله: يا محمد! يا نبي الله! هذا وأمثاله نداءٌ يُطلب به استحضار المُنادىٰ في القلب فيُخاطَب المشهودُ بالقلب كما يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والإنسان يفعل مثل هذا كثيرًا، يخاطب من يتصوَرُهُ في نفسه، وإن لم يكن في الخارج[١]. اهـ.

والحاصل أن الخطاب هنا ليس علىٰ بابه، وإنما هو علىٰ التنزيل؛ أي: تنزيل الغائب منزلة الحاضر للدلالة علىٰ استحضاره في الذهن، وكأنه حاضر شاهد[٢].

واستعمال هذا النوع من النداء في لغة العرب علىٰ معنىٰ الاستحضار القلبي فحسب، معلومٌ لا يخفىٰ»[٣].

وأهل البدع يظنون أن أهل السنة حين ينكرون عليهم نداء الأموات والاستغاثة بهم أن ذلك علىٰ اعتبار النداء المجرد عن حقيقته ومضمونه، فجمعوا مثل تلك النصوص ظانِّين أنها الحجة التي تقصم الظهور، لذلك خلطوا بين تلك الأنواع جميعها من أنواع

= (٣٧٩)، والترمذي في (كتاب الدعوات) برقم (٣٥٧٨) (٥/ ٥٣١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (كتاب عمل اليوم والليلة - ذِكر حديث عثمان بن حنيف) برقم (١٠٦٠٤) (١٠/ ٢٥٦)، وابن خزيمة (باب صلاة الترغيب والترهيب) برقم (١٢١٩) (٢/ ٢٢٥)، والحاكم (١/ ٣١٣)، وقال: صحيحٌ علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وكذا صحّحه العلّامة الألباني. وانظُر: «التوسل» (ص٧٥)، و«صحيح الجامع الصغير» (١٢٧٩).

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٩).

(٢) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٣/ ٨٠١-٨٠٦).

(٣) جاء في «صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا» للقلقشندي (١/ ٤٦٣) -ما نصه-: «كانوا يقولون إنَّ الرَّجُلَ إذا خَدَرَتْ رِجْلُهُ فذَكَرَ أحب الناس إليه ذهب عنه الخدر، قالت امرأة من كلاب:

إذا خَدَرَتْ رِجْلِي ذكرتُ ابنَ مصعب فإن قُلتُ: (عبدَ الله) أجلَى فُتورها

وجاء في «محاضرات الأدباء» لأبي القاسم الأصفاني (٢/ ٦٦) قول الشاعر :

إذا مذلت رجلي ذكرتك اشتفي بدعواك من مذل بها فيهون

السؤال فجعلوها نوعًا واحدًا مُلَبِّسين بذلك علىٰ الجُهَّال من الناس.

فمن المعلوم أن سؤال الناس بعضهم من بعض في الأقسام الثلاثة الأولىٰ، وفي الفرع الثاني من القسم الرابع، معلوم أن ذلك مما جرت به العادة وذلك لقدرتهم عليه، وإن كان من أنواعه تلك ما فيه نوع تذلل إلا أنه لا يطلب به نفع غيبي، حيث إن تلك الانواع جميعها إنما يكون الطلب والسؤال فيها من حي حاضر قادر، وهذا وإن كان نفعًا لكنه ليس غيبًا، فنحن ندرك بالحس والمشاهدة أن الإنسان الحي الحاضر يسمع طلبنا، ويجيب دعاءنا، وهذا بخلاف دعاء النبيين والاستغاثة بالصالحين، فأيّ نفع يرجوه الحي من الميت؟ وأين برهان الشرع وسلطانه الدال علىٰ الجواز؟!

لذلك قال الشيخ مبارك الميلي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وإذا كان المطلوب لا يقدر عليه إلا من له قوة غيبية وهو فوق الأسباب العادية؛ كان الطلب عبادة تختص بالله-تعالىٰ-، ويكون طلب غيره حينئذٍ شركًا بالله.

وأما **القسم الثالث** من أقسام النداء فهو مما جرىٰ استعماله في لسان العرب، وهو معروف في أشعارهم وأقوالهم علىٰ معنىٰ استحضار المذكور في القلب، فهو وإن كان نداءً من حيث الصيغة واللفظ، لكنه ليس كذلك من حيث الحقيقة الحُكْمِيَّةِ التي نهت عنها الشريعة، فالمحظور إنما هو النداء المتضمن للدعاء والطلب.

والمقصود أن سؤال البشر الأحياء بعضهم بعضًا، كل ذلك مما جرت به العادة بقدرتهم عليه، كما أن له معنىٰ يُعْقَلُ ويُدْرَك، ولا يطلب به نفعٌ غيبي، وليس الأمر كذلك في سؤال الأحياء من الأموات[١].

فظهر الفرق جليًّا بهذا بين أنواع السؤال السابقة الذكر ولله الحمد والمنة.

(١) انظر «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» ٣/ ٧٦٩-٧٩١ ضمن آثار العلامة عبد الرحمن المعلمي -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

قواعدُ أربعٌ تجمعُ أصولَ ما قد سبق

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أصولٌ وتقريرات، وتحقيقات محكمات، في أبواب العقائد وغيرها من المسائل المهمات، لا يكاد يستغني عنها المبتدي، وعن مراجعتها والنظر فيها المنتهي، ومما قرره -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في (باب التوحيد) قواعدَ أربع يَعرِفُ المُوحِّدُ بها معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، ويميز بها حقائق التوحيد من أباطيل الشرك.

قال - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: «**أما بعد**: فهذه أربع قواعد ذكرها الله في محكم كتابه، يعرف بها الرجل شهادة أن لا إله إلا الله، ويُميَّز بها بين المسلمين والمشركين؛ فتدبرها، يرحمك الله؛ وأصغ إليها فهمك؛ فإنها عظيمة النفع.

الأولىٰ: أن الله ذكر أن الكفار في زمن رسول الله ﷺ كانوا يقرون أن الله الخالق، الرازق، لا يشاركه في ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وأنه لا يرزق إلا هو، وأنه -سبحانه- منفرد بملك السماوات والأرض، وأن جميع الأنبياء، والمرسلين عبيد له، تحت قهره وأمنه.

فإذا فهم أن هذا مقر به الكفار، ولا يجحدونه، وسألك بعض المشركين عن دليله، فاقرأ عليه، قوله -تعالىٰ- في حق الكفار: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ

يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقال -تعالىٰ-: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

القاعدة الثانية: أنهم يعتقدون في الملائكة، والأنبياء، والأولياء، لأجل قربهم من الله -تعالىٰ-، قال الله -تعالىٰ- في الذين يعتقدون في الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ: ٤٠-٤١].

وقال: في الذين يعتقدون في الأنبياء: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[المائدة: ٧٥-٧٦].

وقال في الذين يعتقدون في الأولياء: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾[الإسراء: ٥٧] الآية.

القاعدة الثالثة: وهي أن الله العلي الأعلىٰ ذكر في كتابه، أن الكفار ما دعوا الصالحين، إلا لطلب التقرب من الله -تعالىٰ-، وطلب الشفاعة؛ وإلا فهُم مقرُّون بأنه لا يدبر الأمر إلا الله كما تقدم، فإذا طلب المشرك الدليل علىٰ ذلك، فاقرأ عليه

قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس:١٨] .

وقال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾[الزُّمَر:٣].

فإذا فهمت هذه المسألة، وتحققت أن الكفار عرفوا ثلاث هذه المسائل، وأقروا بها:

الأولىٰ: أنه لا يخلق، ولا يرزق، ولا يخفض، ولا يرفع، ولا يدبر الأمر، إلا الله وحده، لا شريك له.

الثانية: أنهم يتقربون بالملائكة والأنبياء، لأجل قربهم من الله وصلاحهم.

الثالثة: أنهم معترفون أن النفع والضر بيد الله، ولكن الرجاء، من الملائكة والأنبياء للتقرب من الله، والشفاعة عنده.

فتدبر هذا، تدبرًا جيدًا، واعرضه علىٰ نفسك ساعة بعد ساعة؛ فما أقل من يعرفه من أهل الأرض، خصوصًا من يدعىٰ العلم! فإذا فهمت هذا، ورأيت العجب، **فاعرف وحقق المسألة الرابعة وهي**: أن الذين في زمن رسول الله ﷺ لا يشركون دائمًا، بل تارة يشركون، وتارة يوحدون ويتركون دعاء الأنبياء والشياطين؛ فإذا كانوا في السراء دعوهم، واعتقدوا فيهم وإذا أصابهم الضر، والألم الشديد، تركوهم، وأخلصوا لله الدين، وعرفوا أن الأنبياء، والصالحين، لا يملكون نفعًا، ولا ضرًّا.

فإذا شك أحد في أن الكفار الأولين كانوا يخلصون لله بعض الأحيان، فاقرأ عليه قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾[الإسراء:٦٧].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾[الزُّمَر:٨].

فهذا الذي هو من أصحاب النار: يخلص الدين لله تارة، ويخلص للملائكة والأنبياء تارة، وقال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٤٠-٤١].

وصلىٰ الله علىٰ محمد، وآله وصحبه وسلم»[١].اهـ.



(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٢٧-٣٠).

منصوصُ الفقهاءِ من أئمةِ المذاهبِ على أن الاستغاثةَ بغيرِ اللهِ فيما لا يقدر عليه إلا الله أمرٌ محرمٌ وشركٌ مُحتّمٌ

وكلام أئمة الفقهاء، وفقهاء الأئمة من سائر المذاهب المتبوعة صريح في أن دعاء غير الله شرك. وهاك طرفًا منه.

يقول الإمام أبو حنيفة -رَحِمَهُ اللهُ-: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول المرء: أسألك بمعقد العز من عرشك وأكره أن يقول: وبحق أنبيائك، ورسلك، وبحق البيت الحرام.

وهذه العبارة مشهورة عن الإمام، وقد رواها الإمام القُدُوري في «شرحه» علىٰ مختصر الكَرْخي عن الإمام بشر بن الوليد أنه قال: سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة .. وذكرها.

كما ونقلها عن شرح القُدُوري جماعة كبيرة من علماء الحنفية مستدلين بها علىٰ منع الاستغاثة بالأموات عند الشدائد والملمات[1].

ويقول الإمام البركوي الحنفي -رَحِمَهُ اللهُ- (٩٨١هـ): «وأما الزيارة البدعية فزيارة القبور لأجل الصلاة عندها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود عليها وأخذ ترابها ودعاء أصحابها والاستعانة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية

---

(١) انظر- للفائدة-: «الاختيار لتعليل المختار» (٤/ ١٦٤) لابن مودود الموصلي الحنفي، و«جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (٢/ ١١٢٣).

والولد وقضاء الديون وتفريج الكُرُبات وإغاثة اللهفات وغير ذلك من الحاجات التي كان عُبَّادُ الأوثان يسألونها من أوثانهم فليس شيء من ذلك مشروعًا باتفاق أئمة المسلمين إذ لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة والتابعين وسائر أئمة الدين، بل أصل هذه الزيارة البدعية الشركية مأخوذة من عباد الأصنام»[1].

ويقول الشيخ أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي الحنفي (١٣٢٩هـ): «ومن أقبح المنكرات وأكبر البدعات وأعظم المحدثات ما اعتاده أهل البدع من ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمه الله- بقولهم: يا شيخ عبد القادر الجيلاني شيئًا لله، والصلوات المنكوسة إلىٰ بغداد، وغير ذلك مما لا يعد، هؤلاء عبدة غير الله ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١]، ولم يعلم هؤلاء السفهاء أن الشيخ -رحمه الله- لا يقدر علىٰ جلب نفع لأحد ولا دفع ضر عنه مقدار ذرة، فلم يستغيثون به ولم يطلبون الحوائج منه ؟! ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر:٣٦]؟!! اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك أو نعظم أحدًا من خلقك كعظمتك»[2].

ويقول العلامة نعمان خير الدين الشهير بابن الآلوسي الحنفي (١٣١٤هـ): قال الشيخ محمد الأمين السويدي الشافعي: ولا يجوّز ذلك إلا من جهل آثار الرسالة، ولهذه عمت الاستغاثة بالأموات عند نزول الكربات يسألونهم ويتضرعون إليهم، فكان ما يفعلونه معهم أعظم من عبادتهم واعتقادهم في رب السموات»[3]. اهـ.

---

(١) «زيارة القبور» (ص٢٠-٢١)، وانظر: «جهود علماء الحنفية» (٢/ ١١٣٧)، وقارن بـ«إغاثة اللهفان» (١/ ٣٧١) لابن القيم.

(٢) «التعليق المغني علىٰ سنن الدارقطني» (٥/ ٤٠٣) .

(٣) «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» (ص ٤٤٨).

ويقول العلامة صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي (ت١١٢٠هـ): «هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهممهم تنكشف المهمات، فيأتون قبورهم، وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين علىٰ أن ذلك منهم كرامات! وقرّرهم علىٰ ذلك من ادعىٰ العلم بمسائل، وأمدهم بفتاوىٰ ورسائل، وأثبتوا للأولياء - بزعمهم- الإخبار عن الغيب بطريق الكشف لهم بلا ريب، أو بطريق الإلهام أو منام!

وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد نجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعه، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجَوَّزُوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور.

وهذا كما ترىٰ كلام فيه تفريط وإفراط، وغلو في الدين، بل فيه الهلاك الأبدي، والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادرة الكتاب العزيز المصدّق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه هذه الأمة»[(١)] .اهـ.

ويقول الشيخ مبارك الميلي المالكي -رَحِمَهُ اللهُ- (١٣٦٤هـ) : «فإذا كان الدعاء عبادة وجب أن يختص بالله، وأن يحترز فيه من الوقوع في الشرك، أو فيما هو ذريعة إليه...»، وقال : «وإذا ما دعي غير الله فهو شرك صريح وكفر قبيح»[(٢)] .اهـ.

ويقول أبو بكر الطرطوشي المالكي -رَحِمَهُ اللهُ- (ت٥٢٠هـ)، عند قوله -تعالىٰ-:

---

(١) «سيف الله علىٰ من كذب علىٰ أولياء الله» (ص١٥-١٦).

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص١٩٢و١٩٧) للشيخ مبارك الميلي.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ ﴾ [الأعراف:١٩٤] يقول: «فجمع الله بين الأصنام وبين آدم في اسم العبودية، فدلت الآية علىٰ أن من دخل تحت العبودية لا يضر ولا ينفع، ولا يستأهل كل ذلك التعظيم، بل هو خلق محتاج قد لحقه ذل التكوين مفتقر إلىٰ ما يفتقر إليه من دعاه»[1]. اهـ.

وجاء في «الإقناع» للحجاوي -الحنبلي-رَحِمَهُ اللهُ- (ت٩٦٨هـ) ما نصه: «قال الشيخ: أو كان مبغضًا لرسوله أو لما جاء به -اتفاقًا-، وقال: أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم إجماعًا»[2].اهـ - أي: كفر- .

ويقول منصور البُهُوتي الحنبلي -رَحِمَهُ اللهُ- (ت١٠٥١هـ) في «كشاف القناع» ما نصه: «قال الشيخ - يعني: صاحب «الإقناع»- (أو كان مبغضًا لرسوله أو لما جاء به) الرسول (اتفاقًا، وقال: أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم إجماعًا).

قال البُهُوتي- الشارح-: أي كفر؛ لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ»[3]. اهـ.

ويقول ابن مُفْلِح الحنبلي -رَحِمَهُ اللهُ- (ت٧٦٣هـ) في كتابه «الفروع» -باب حُكم المرتد- ما نصه: «قال: أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم»[4].

---

(١) «الدعاء المأثور» (ص٣١-٣٢)، وانظر: «جهود المالكية في توحيد العبادة» (ص٤٣٠).
(٢) «الإقناع» (٤/ ٢٨٥ - ط. التركي)، وانظُر: «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٢٤).
(٣) «كشاف القناع» (٦/ ١٦٨).
(٤) «الفروع» (٦/ ١٦٥).

ويقول العلامة علاء الدين المرداوي الحنبلي (٨٨٥هـ): «وقال الإمام أحمد وغيره من العلماء : في قوله -عليه أفضل الصلاة والسلام-: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق** » : الاستعاذة لا تكون بمخلوق»[(١)].

ويقول العلامة تقي الدين أحمد بن علي المقريزي الشافعي (ت٨٤٥هـ): «وشرك الأمم نوعان:

النوع الأول: شرك في الإلهية.

والثاني: شرك في الربوبية.

فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب علىٰ أهل الإشراك، وهو شرك عباد الأصنام، وعبّاد الملائكة، وعبّاد الجن، وعبّاد المشايخ، وعبّاد الصالحين، الأحياء منهم والأموات.

الذين قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفىٰ لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته، والكتب الإلهية كلها من أولها إلىٰ آخرها تبطل هذا المذهب وترده وتقبح أهله وتنص علىٰ أنهم أعداء الله، وجميع الرسل عليهم السلام متفقون علىٰ ذلك من أولهم إلىٰ آخرهم، وما أهلك الله تعالىٰ أمة من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله»[(٢)].

---

(١) «الإنصاف» (٢/ ٤٥٦).

(٢) «تجريد التوحيد المفيد» (ص ٤٥) - بتصرف يسير-.

وأختم بأبيات رائقة بديعة من منظومة العبادي[١] -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- والموسومة بـ«هداية المريد إلىٰ سبيل الحق والتوحيد» قال فيها :

ومـــن يقـــل غيـــر الإلـــه يملـــك ... ضـــرا ونفعـــا فهـــو أيـــضًا مـــشرك

ومـــن ينـــادي ميتـــا أو غائبـــا ... ويرتجيـــــه راغبـــــا و راهبـــــا

لــــدفع ضـــر أو حـــصول نفـــع ... فـــذاك شـــرك عنـــد أهـــل الـــشرع

كمـــن ينـــادي مـــستغيثا بأحـــد ... أو مـــستعينا أو رجـــا مِنـــه الولـــد

إذ ذاك في العـــادة لـــيس يقـــدر ... عليــــه إلا الواحـــــد المقتـــــدر

وكـــل مـــا اســـتحال في العـــادات ... كطلـــب الأحيـــا مـــن الأمـــوات[٢]

فلـــم يجـــز لمـــسلم أن يفعلـــه ... وأنكـــر الـــشرع علـــىٰ مـــن فعلـــه

فمـــا لكـــم يـــا معـــشر الجُهَّـــال ... تـــدعون غيـــر الله ذي الجـــلال

في جلـــب نفـــع أو لـــدفع ضُـــرّ ... أو بُـــرْء سُـــقْمٍ وارتفـــاع شـــرّ

مـــن لـــيس يغنـــي نفـــسه مـــن ضـــرها ... ولـــم يطـــق انقاذهـــا مـــن فقرهـــا

وتـــستمدون مـــن الأمـــوات ... تيـــسير عـــسر وقـــضا الحاجـــات

---

(١) هو: أحمد بن محمد بن عوض العبادي اليماني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- اشتهر بدعوته للكتاب والسنة، ومحاربة البدع في اليمن سيما بدع القبورية، والأثر الوحيد المكتوب للعبادي هو منظومته التي أوردنا طرفًا منها «هداية المريد إلىٰ سبيل الحق والتوحيد»، وهي منظومة متوسطة كلها في العقيدة والدعوة إلىٰ التوحيد والاتباع، والتحذير من الشرك والابتداع، والرد علىٰ المخرفين والدجاجلة، كما وصفهم الشيخ البيحاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في التعليق عليها.

(٢) في الأصل: «الأصوات»، ولعل الصواب ما أثبته.

ألـــم تـــروا أن الـــدعا عبـــادة   لا يمـــتري فيـــه ذوو الـــشهادة

فمـــن دعـــا غيـــر الإلـــه أحـــدا   يمنحـــه الخيـــر ويكفيـــه الـــردى

فإنـــه لمـــن دعـــاه عابـــد   ســـواء الجاهـــل والمعانـــد

وفي ثبـــوت النهـــي في الكتـــاب   دلائـــل لمبتغـــي الـــصواب

يكفيـــك أن الله قـــال ادعـــوني   كمثـــل مـــا قـــد قـــال فاعبـــدوني[١]



(١) انظر: «تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران» (ص٤٢-٤٣ ط. جامعة الإمام).

شبهات وجوابات[1]

استدل من جوز الاستغاثة وطلب الشفاعة من الأموات ببعض الشبه التي هي أوهىٰ من بيت العنكبوت، ومنها:

□ أولًا : ما رواه القاضي عياض بسنده عن محمد بن حميد الرازي قال:

«وناظر أبو جعفر المنصور مالكًا في مسجد النبي ﷺ فرفع أبو جعفر صوته، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين! لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله -تعالىٰ- أدب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾[الحُجُرات:٢] ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾[الحُجُرات:٣].

وذم قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحُجُرات:٤]، وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًّا.

---

(١) وقد خلط أهل البدع بين مفهومي التوسل والاستغاثة، فجعلوهما من باب واحد في الأحوال والأحكام، حيث يستدلون علىٰ جواز التوسل بما لا يصح الاستدلال به، إما من جهة ضعفه، وإما من جهة عدم دلالته علىٰ المطلوب، كاستدلالهم بما هو دليل علىٰ التوسل المشروع، ثم يجعلون ذلك دليلًا علىٰ جواز الاستغاثة بالاموات وطلب الحوائج منهم، فأدلتهم علىٰ جواز التوسل هي عينها التي يستدلون بها علىٰ جواز الاستغاثة، وهنا ذكرت أشهر ما يستدلون به، وبه يعرف كثير مما ورائه، وانظُر: «مسألة العذر بالجهل في مسائل العقيدة» ضمن مجلة «الدراسات العقدية» (١/ ٢٢-٥١).

وانظر-للتفصيل مطولًا-: كتاب «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٥٠٥).

فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله! أدعو مُستقبِلًا القبلة أم مستقبلًا رسول الله ﷺ.

فقال: ولِمَ تصرف وجهَك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلىٰ الله -تعالىٰ- يوم القيامة، بل استقبله، واستشفع به إلىٰ ربك يشفعك قال الله -تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء:٦٤]»[1].

وهذه الحكاية باطلة من وجوه:

١- راوي هذه الحكاية عن مالك هو: محمد بن حميد الرازي، وفي روايته هذه ضعف من وجهين:

أولًا: من جهة ضعفه في نفسه، فهو ضعيف مع حفظه[2]، فقد تكلم فيه الحفاظ، قال البخاري: في حديثه نظر، وقال النسائي: ليس بثقة، بل قال أبو زرعة: صح عندنا أنه يكذب[3].

ثانيًا: انفراده بهذه الرواية عن سائر أصحاب الإمام مالك، وأصحاب الإمام

---

(١) «الشفا» (٢/ ٥٩٥-٥٩٦)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ١٠١)، و«الدرر السنية» (ص٩-١٠) لدحلان.

(٢) انظر: «الصحيحة» (٧/ ٤٤٢) تحت الحديث رقم (٣١٥٥)، وانظر -لتمام الفائدة-: «الضعيفة» (١/ ٩٢) تحت الحديث رقم(٢٥).

(٣) «الجرح والتعديل» (٧/ ٢٣٢)،و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٥٣٠)، و«تاريخ بغداد» (٢/ ٢٦٢- ٢٦٣).

مالك متفقون علىٰ أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول في مسائل الفقه، بل إذا روىٰ عنه الشاميون ضعفوا روايتهم، وإنما يعتمدون علىٰ رواية المدنيين والبصريين، فكيف بحكاية تناقض صريح مذهبه من وجوه كثيرة تفرد بها أحد الخراسانيين الضعفاء[(١)].

٢- هذه الرواية تناقض المشهور من مذهب الإمام مالك في صفة السلام علىٰ رسول الله ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : «هذه الحكاية كذب بلا ريب من وجوه منها : أنها مخالفة لمذهب مالك ومذهب سائر الأئمة، فإنهم متفقون علىٰ أن مَن سَلَّم علىٰ النبي، ثم أراد الدعاء؛ فإنه يستقبل القبلة؛ كما روي ذلك عن الصحابة، وتنازعوا وقت السلام عليه، هل يستقبل القبلة أو القبر؟علىٰ قولين»[(٢)].

٣- أن الإمام مالكًا -رحمه الله- كان من أبعد الناس عن البدع، وكان يكره قول الرجل: زرت قبر النبي، ويستعظمه، فكيف يستدل هنا بالآية : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ...﴾ فهذا تناقض ظاهر يُنَزَّهُ عن مثله الإمام مالك[(٣)].

ثم إن الاستدلال بالآية وانتزاع منها جواز المجيء عند قبر الرسول وطلب

---

(١) انظر: «جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة» (ص٤٢٧).

(٢) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص٢٦)، وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٨٦)، و«الصارم المنكي» (ص٣٧٣)، و«جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة» (ص٤٢٧).

(٣) انظر: «الصارم المنكي» (ص٣٦٨-٢٣٩)، و«جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة» (ص٤٢٨).

الاستغفار منه بعد موته فقد قال قائلهم : فهم العلماء منها العموم للجائين يعني في حال حياته وفي حال موته.

وهذا -لعمر الله- استدلالٌ مُحْدَثٌ مردودٌ، ليس عليه سلف الأمة وأئمتها من أهل الحديث والفقه والتفسير، حيث لم يفهم أحدٌ العموم بالمعنىٰ المذكور[١]؟

وسيأتي بيان هذا - بإذن الله- في موضعه.

□ ثانيًا : استدل مَن جوّز سؤال الأموات، وطلب الشفاعة منهم بحكاية تروىٰ عن مجهول يُدعىٰ (العُتبي):

وهذه الحكاية ذكرها جماعةٌ من أهل العلم، فقد رواها البيهقي في «شُعب الإيمان»[٢]، وذكرها الإمام النووي في كتابه «المجموع»[٣] -مستحسنًا إياها-، وذكرها ابن قدامة في «المغني» - بصيغة التضعيف-[٤].

ونقلها الحافظ ابن كثير في «تفسيره» -ساكتًا عنها- حيث قال :

«وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العتبي، قال: كنت جالسًا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال:

(١) وانظر للفائدة: «أسئلة طال حولها الجدل» (ص٥٣-٥٨) للشيخ أبي يوسف عبد الرحمن عبد الصمد- رحمه الله-.

(٢) (٧/ ٣٤) برقم(٣٨٨٠).

(٣) «المجموع» (٨/ ١٥٧).

(٤) «المغني» مع «الشرح الكبير» (٣/ ٦٠٠) مسألة رقم (٢٧٤٨)، حيث قال: «ويُروىٰ عن العتبي ..» ثم ساقها.

السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلىٰ ربي ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ مَن دُفِنَتْ بالقاعِ أَعْظُمُهُ فطاب مِن طيبِهِنَّ القاعُ والأَكَمُ
نَفسي الفِداءُ لِقَبْرٍ أنتَ ساكِنُهُ فيه العفافُ وفيه الجُودُ والكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي، الحق الأعرابي، فبشِّره أن الله قد غفر له»[1].اهـ.

وهذه الحكاية باطلة، وذلك من وجوه :

١ – **عدم دلالة الآية على مطلوب المخالف؛** ويظهر ذلك من خلال معرفة معنىٰ الآية، حيث إن المراد بالمجيء في قوله تعالىٰ: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ﴾ هو المجيء المخصوص في حياته ﷺ وليس بعد مماته، وسياق الآيات ظاهرٌ في هذا المعنىٰ يدل عليه قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فأنّىٰ لمن يأتي قبره الشريف مستغفرًا ربه، أن يستغفر له الرسول ﷺ وهو في قبره حتىٰ ينال التوبة والرحمة من الله في قوله: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾؟

فطلب الصحابة من النبي الاستغفار لهم أو الشفاعة، إنما ذلك مختص شرعًا، وثابت وقوعًا في حياته وليس بعد مماته، ونصوص القرآن دالةٌ علىٰ هذا المعنىٰ .

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٤٧-٣٤٨) .

قال الله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

ويقول -تعالىٰ-: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[النور:٦٢].

وقال -تعالىٰ-: ﴿فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الممتحنة:١٢].

ويقول -سبحانه-: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

يقول -تعالىٰ-: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾[الفتح:١١].

ويقول -سبحانه- في قول أبناء يعقوب-: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[يوسف:٩٧].

وبالجملة فإن استغفار الرسلِ لأصحابهم، وسؤالَ أصحابهم لهم الاستغفار والشفاعة إنما ذلك في حياتهم.

وما سقناه من الآيات دليل واضح، وبرهان ساطع علىٰ ذلك، كما أن عدم دلالة الشرع تنصيصًا أو حتىٰ بالإشارة علىٰ جواز، أو وقوع غير تلك الصورة، لهو دليل علىٰ المنع، فإن هذا مما تتوافر الهمم والدواعي علىٰ نقله،فعدم نقل ما تتوافر الهمم والدواعي علىٰ نقله مع قيام المقتضي لنقله وانتفاء المانع من نقله هو دليلٌ علىٰ العدم.

وفي تقرير هذا المعنىٰ يقول الحافظ ابن عبد الهادي -رَحِمَهُ اللَّهُ- : «ولم يفهم منها أحد من السلف والخلف إلا المجيء إليه في حياته ليستغفر لهم، وقد ذم -تعالىٰ- مَن تخلَّف عن هذا المجيء إذا ظلم نفسه، وأخبر أنه من المنافقين فقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[المنافقون:٥].

وكذلك هذه الآية إنما هي في المنافق الذي رضي بحكم كعب بن الأشرف وغيره من الطواغيت دون حكم رسول الله ﷺ فظلم نفسه بهذا أعظم ظلم، ثم لم يجئ إلىٰ رسول الله ﷺ ليستغفر له، فإن المجيء إليه ليستغفر له توبة وتنصل من الذنب، وهذه كانت عادة الصحابة معه ﷺ أن أحدهم متىٰ صدر منه ما يقتضي التوبة جاء إليه فقال: يا رسول الله! فعلت كذا وكذا، فاستغفر لي، وكان هذا فرقًا بينهم وبين المنافقين.

فلما استأثر الله ﷻ بنبيه ﷺ، ونقله من بين أظهرهم إلىٰ دار كرامته؛ لم يكن أحد منهم قط يأتي إلىٰ قبره ويقول: يا رسول الله! فعلت كذا وكذا؛ فاستغفر لي.

ومَن نَقَلَ هذا عن أحد منهم؛ فقد جاهر بالكذب والبهت، وافترىٰ علىٰ الصحابة والتابعين وهم خير القرون علىٰ الإطلاق.

هذا الواجب الذي ذم الله -سبحانه- مَن تخلّف عنه، وجعل التخلُّف عنه من أمارات النفاق، ووفق له من لا توبة له من الناس، ولا يُعَدُّ في أهل العلم.

وكيف أغفل هذا الأمر أئمة الإسلام وهداة الأنام من أهل الحديث والفقه والتفسير ومَن لهم لسان صدق في الأمة فلم يدعوا إليه، ولم يحضوا عليه، ولم

يرشدوا إليه ولم يفعله أحد منهم البتة»[(١)]!

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ- : «ولهذا استحب طائفة من متأخري الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد مثل ذلك، واحتجوا بهذه الحكاية التي لا يثبت بها حكم شرعي، لا سيما في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعًا مندوبًا؛ لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأعمل به من غيرهم بل قضاء حاجة مثل هذا الأعرابي وأمثاله لها أسباب قد بسطت في غير هذا الموضع.

وليس كل من قضيت حاجته لسبب، يقتضي أن يكون السبب مشروعًا مأمورًا به، فقد كان ﷺ يُسأل في حياته المسألة فيعطيها لا يرد سائلًا، وتكون المسألة محرمة في حق السائل[(٢)].اهـ.

ويقول العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني -رَحِمَهُ اللَّهُ-: فطلب الدعاء من الأنبياء بما فيه صلاح الدين أمر مرغوب فيه في الجملة إذا كان بحضرتهم، إلا أن صنيع كبار الصحابة يدل أن الأَوْلىٰ عدم الطلب والاكتفاء بعمل الخيرات؛ لأنه يبعث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علىٰ الدعاء والاستغفار للعامل بدون سؤال منه والله أعلم[(٣)].

---

(١) «الصارم المنكي» (ص٤٢٥-٤٢٦).

(٢) ومن ذلك حديث معاوية-رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا تُلْحِفُوا فِيْ الْمَسْأَلَةِ فَوَاللهِ لا يَسْأَلُنِيْ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ**». رواه الإمام مسلم، كتاب الزكاة- باب النهي عن المسألة، برقم (٢٣٨٧) (٧/ ١٢٩ - «شرح النووي»).

وانظر -للفائدة-: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٣٠و٢٣٨و٢٨٩).

(٣) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله» (٣/ ٧٧٦).

٢- **بطلان قصة العُتْبي في نفسها؛** فإسنادها مسلسل بالمجاهيل والضعفاء، فالعتبي لا يُعرف والأعرابي لا يُدرىٰ من هو، ويزيد الرَّقَاشي ضعيف، وعمرو بن محمد بن عمرو بن الحسين، ومحمد بن روح بن يزيد البصري، وأبو حرب الهلالي -سواء كان هو نفسه العتبي أو لا- فكلهم مجاهيل، فليس هذا الإسناد مما يُفرح به، أو يُحتج به، فهو إسناد مظلم.

لذلك قال الحافظ أبو محمد بن عبد الهادي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «وهذه الحكاية التي ذكرها بعضهم يرويها عن العتبي، بلا إسناد، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالي، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب عن أبي الحسن الزعفراني، عن الأعرابي.

وقد ذكرها البيهقي في كتاب «شعب الإيمان» بإسناد مظلم عن محمد بن روح ابن يزيد بن البصري، حدثني أبو حرب الهلالي قال: حج أعرابي فلما جاء إلىٰ باب مسجد رسول الله ﷺ أناخ راحلته فعقلها، ثم دخل المسجد حتىٰ أتىٰ القبر، ثم ذكر نحو ما تقدم، وقد وضع لها بعض الكذابين إسنادًا إلىٰ علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- كما سيأتي ذكره .

وفي الجملة : ليست هذه الحكاية المذكورة عن الأعرابي مما يقوم به حجة، وإسنادها مظلم مختلف، ولفظها مختلف أيضًا، ولو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة علىٰ مطلوب المعترض، ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية، ولا الاعتماد علىٰ مثلها عند أهل العلم، وبالله التوفيق»[١] .

---

(١) انظر: «الصارم المنكي» (ص٣٣٨)، و«تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢/ ٢٩٦-٢٩٧ - جمع إياد القيسي).

ويقول العلامة الألباني- رَحِمَهُ اللهُ- بعد ذِكْرِه رواية البيهقي لحكاية العتبي-: «وهذا إسنادٌ ضعيف مظلم، لم أعرف أيوب الهلالي ولا من دونه، وأبو يزيد الرقاشي، أورده الذهبي في «المقتنىٰ في سرد الكنىٰ» (٢ / ١٥٥) ولم يسمه، وأشار إلىٰ أنه لا يعرف بقوله: «حكىٰ شيئًا»، وأرىٰ أنه يشير إلىٰ هذه الحكاية، وهي منكرة ظاهرة النكارة، وحسبك أنها تعود إلىٰ أعرابي مجهول الهوية! وقد ذكرها -مع الأسف- الحافظ ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء:٦٤] وتلقفها منه كثير من أهل الأهواء والمبتدعة، مثل الشيخ الصابوني، فذكرها برمتها في «مختصره» (١/ ٤١٠) وفيها زيادة في آخرها: «ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي! الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له»، وهي في «ابن كثير» غير معزوة لأحد من المعروفين من أهل الحديث، بل علقها علىٰ (العتبي)، وهو غير معروف إلا في هذه الحكاية، ويمكن أن يكون هو أيوب الهلالي في إسناد البيهقي، وهي حكاية مستنكرة، بل باطلة، لمخالفتها الكتاب والسنة، ولذلك يلهج بها المبتدعة، لأنها تجيز الاستغاثة بالنبي ﷺ، وطلب الشفاعة منه بعد وفاته، وهذا من أبطل الباطل، كما هو معلوم، وقد تولىٰ بيان ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه وبخاصة في «التوسل والوسيلة»، وقد تعرض لحكاية العتبي هذه بالإنكار، فليراجعه من شاء المزيد من المعرفة والعلم»[1].

والحاصل أن مثل هذه الحكايات والروايات لا يثبت بها حكمٌ أو شرعٌ، فضلًا عن أن يثبت بها عقيدة أو إيمان، «فما دام أنها ليست من سنة الرسول ﷺ ولا من

(١) «السلسلة الصحيحة» (٦/ ١٠٣٤) تحت الحديث رقم (٢٩٢٨).

فعل خلفائه الراشدين، وأصحابه المكرمين، ولا من فعل التابعين والقرون المفضلة، وإنما هي مجرد حكاية عن مجهول، نقلت بسند ضعيف فكيف يحتج بها في عقيدة التوحيد الذي هو أصل الأصول؟! وكيف يحتج بها وهي تعارض الأحاديث الصحيحة التي نهىٰ فيها عن الغلو في القبور والغلو في الصالحين عمومًا، وعن الغلو في قبره والغلو فيه ﷺ خصوصًا؟! وأما من نقلها من العلماء أو استحسنها فليس ذلك بحجة تعارض بها النصوص الصحيحة وتخالف من أجلها عقيدة السلف، فقد يخفىٰ علىٰ بعض العلماء ما هو واضح لغيرهم، وقد يخطئون في نقلهم واجتهادهم، وتكون الحجة مع من خالفهم، وما دمنا قد علمنا طريق الصواب فلا شأن لنا بما قاله فلان أو حكاه فلان، فليس ديننا مبنيًا علىٰ الحكايات والمنامات، وإنما هو مبني علىٰ البراهين الصريحة والدلائل الصحيحة»[1].

□ ثالثًا:

يَستدلُّ مَن يُجَوِّز الاستغاثة بالنبي ﷺ، بما رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٧/ ٦٣-٦٥) برقم (٣٢٦٦٥ - ت.عوامة) (ما ذُكر في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه) قال:

«حدّثنا أبُو مُعاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن مالك الدّار، قال: وكان خازن عُمر علىٰ الطّعام، قال: أصاب النّاسَ قحطٌ في زمن عُمر، فجاء رجُلٌ إلىٰ قبر النّبيّ ﷺ فقال: يا رسُول اللّه! استسقِ لأُمّتك؛ فإنّهُم قد هلكُوا، فأُتي الرّجُل في المنام فقيل لهُ: «ائت عُمر فأقرِئهُ السّلام، وأخبرهُ أنّكُم مسقيّون، وقُل لهُ: عليك

(١) «هذه مفاهيمنا» (ص٧٦) -بتصرف- لمعالي الشيخ صالح آل الشيخ-حفظه الله-.

الكَيْس، عليك الكَيْس»، فأتىٰ عُمر، فأخبرهُ فبكىٰ عُمرُ ثُمّ قال: يا ربّ لا آلُو إلّا ما عجزتُ عنهُ.

والجواب عن هذه القصة من وجوه:

أولًا : عدم التسليم بصحة القصة، وبيان هذا من وجوه :

١- ظاهر كلام كثير من أهل العلم يدل علىٰ أنّ مالك الدار -راوي القصة- غير معروف بالعدالة والضبط، فقد ذكرَهُ البخاريُّ في «التاريخ الكبير»، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»، ولمْ يذكُرَا فيه جرحًا ولا تعديلًا ، وكذا قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»[١].

٢- في القصة عنعنة الأعمش- مُحدِّث الكوفة وقارؤها-، وهو علىٰ علمه وحفظه-رَحِمَهُ اللَّهُ- إلّا أنه في عداد الطبقة الثانية من المُدلِّسين عند الحافظ ابن حجر[٢]، بل ومن المشهورين به[٣].

٣- تَفرُّد مالك الدار -وهو غير معروف بالرواية-، وهذا مما يُشعر بضعفها، فمثل هذا الحَدَث العام هو مما تتوافر الهمم والدواعي علىٰ نَقْلِه، فتَرْكُ نَقْلِه مُشعرٌ بضعفه.

---

(١) «التاريخ الكبير» (٧/ ٣٠٤)، و«الجرح والتعديل» (٨/ ٢١٣)، و«مجمع الزوائد» (٣/ ١٢٥).

(٢) في كتابه «طبقات المُدلِّسين» (ص٣٣).

(٣) انظر : «جزء في أسماء المُدلِّسين» (ص١٠٢) للحافظ جلال الدين السيوطي- ضمن «مجموع فيه ثلاث رسائل في علوم الحديث».

ثانيًا: قد ذَكَرَ الحافظُ ابن حجر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- رواية ابن أبي شيبة في «الفتح» فقال:

«وروىٰ ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السَّمَّان عن مالك الدار..»، وساق القصة[١].

وكلام الحافظ هذا قد يُفهم منه تصحيحه للسند، إلا أنه ليس صريحًا في ذلك، فقد يُفهم منه أيضًا تصحيح الإسناد إلىٰ أبي صالح السَّمَّان فقط، ويبقىٰ التوقف أو النظر في حال مالك الدار، وهذه طريقة مطروقة عند المحدِّثين.

وفي هذا يقول العلامة الألباني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- : «ولا ينافي هذا قول الحافظ: «... بإسنادٍ صحيح من رواية أبي صالح السَّمَّان ...»؛ لأننا نقول: إنه ليس نصًّا في تصحيح جميع السَّنَد، بل إلىٰ أبي صالح فقط، ولولا ذلك لما ابتدأ هو الإسناد من عند أبي صالح، ولقال رأسًا: (عن مالك الدار ... وإسناده صحيح)، ولكنه تعمَّد ذلك؛ لِيلفت النظر إلىٰ أنّ ها هنا شيئًا ينبغي النظر فيه، والعلماء إنما يفعلون ذلك لأسباب منها: أنهم قد لا يحضرهم ترجمة بعض الرواة، فلا يستجيزون لأنفسهم حذف السند كله، لما فيه من إيهام صحته لا سيما عند الاستدلال به.

بل يُوردون منه ما فيه موضع للنظر فيه، وهذا هو الذي صنعه الحافظ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٦٣٩)، كتاب الاستسقاء-باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.
وأما الرواية التي فيها تسمية الرجل الذي جاء إلىٰ قبر النبي ﷺ وأنه الصحابي بلال بن الحارث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فهي رواية ضعيفة باطلة، إذ هي من رواية سيف بن عمر، وهو مُتَّفَقٌ علىٰ ضعفه عند المُحدِّثين، وتفصيل ذلك تراه في «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤٢١-٤٢٣).

هنا، وكأنه يشير إلىٰ تفرُّد أبي صالح السَّمَّان عن مالك الدار، كما سبق نقله عن ابن أبي حاتم، وهو يُحِيل بذلك إلىٰ وجوب التثبُّت مِن حال مالك -هذا-، أو يشير إلىٰ جهالته، والله أعلم»[١].

ثالثًا: علىٰ فرض صحة هذه القصة؛ فإنّها لا تُقاوِم -بحال- تلك النصوص الصريحة والأدلة الصحيحة التي جاءت في «الصِّحاح»، و«السُّنن»، و«المسانيد»، وبرواية المَرضيِّين الأثبات مِن نهيه الشديد ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد وأعيادًا.

ولمْ يَشَمَّ رائحة العلم مَن رَدَّ تلك النصوص المحكمة المتكاثرة، مِن أجل قصة فيها ما فيها من المآخذ والاحتمالات[٢].

رابعًا : سُنّة الصحابة التَّركية دالَّةٌ بكُلِّ صراحةٍ ووضوح علىٰ نقيض ما دلَّت عليه هذه القصة، حيث كانوا رضي الله عنهم يستسقون ويتوسَّلون بدعاء الصالحين منهم.

خامسًا: وقوع الرؤيا بعد إتيان القبر، واستجابة الدعاء علىٰ إثر ذلك لا يدل مطلقًا علىٰ جواز الفعل نفسه؛ إذ قد يقع السؤال عند قبر النبي ﷺ، أو قبر غيره فيحصل المطلوب بأسباب، إما فتنةً، أو استدراجًا، أو نحو ذلك، وهذا معروف معلوم[٣].

وما أجمل ما قال شيخ الاسلام ابن تيمية -رحمه الله- وبه نختم- : «وإنما اشتغلَت قلوب طوائف من الناس، بأنواع من العبادات المبتدعة: إما من الأدعية، وإما من

(١) «التوسل أنواعه وأحكامه» (ص١٣١).

(٢) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤٢٣).

(٣) «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (١/ ٤٢٦).

الأشعار وإما من السماعات، ونحو ذلك لإعراضهم عن المشروع، أو بعضه -أعني لإعراض قلوبهم- وإن قاموا بصورة المشروع، وإلا فمن أقبل علىٰ الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عاقلا لما اشتملت عليه من الكلم الطيب، والعمل الصالح مهتما بها كل الاهتمام - أغنته عن كل ما يتوهم فيه خير من جنسها.

ومن أصغىٰ إلىٰ كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره.

ومن اعتاد الدعاء المشروع في أوقاته، كالأسحار، وأدبار الصلوات والسجود، ونحو ذلك، أغناه عن كل دعاء مبتدع، في ذاته أو بعض صفاته.

فعلىٰ العاقل أن يجتهد في اتباع السنة في كل شيء من ذلك، ويعتاض عن كل ما يظن من البدع أنه خير بنوعه من السنن، فإنه من يَتَحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومن يتوقَّ الشرَّ يُوقَهُ»[(١)].

هذا ما يَسَّرَ اللهُ جَمْعَهُ وبيانَه في هذه الرسالة، والتي أسأل الله -جل جلاله- أن يكتب لنا بسببها الأجر والمثوبة، وأن ينفع بها العباد، وأن يدخر لنا خيرها وبركتها في الآخرة، والحمد لله رب العالمين.



(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٦٩-٢٧٠).

فهرس الموضوعات

الموضــــــوع الصفحة



تم بحمد الله